الجمـهـورية الجـزائرية الديمـقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم
كلية الأدب العربي والفنون
قسم اللغة والأدب العربي

صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية رواية "عائد إلى حيفا "لغسان كنفاني" أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر في الأدب العربي

تخصص دراسات أدبية مقارنة

إعداد الطالبة :
مداح العالية

إشراف الدكتورة:
طانية حطاب

السنـة الجامعيـة: 2016- 2017

إهداء

إلـــــــــــــى

من لونت عمري بجمالها و حنانها، و عجز اللسان عن وصف جميلها

سهرت و ضحت براحتها، و شملتني بعطفها و حنانها " أمي الحبيبة "

إلـــــــــــــى

الذي أفدى حياته جدا و كدا في تربيتي و تعليمي

من كان سندي اروحي و رافقني في مشواري " أبي الحبيب "

إلـــــــــــــى

من كانت صاحبة الفضل علي، و لم تبخل بدعمها و توجيهاتها في

رحلة بحثي هذا استاذتي المشرفة " طانية حطاب "

إلـــــــــــــى

من ذقت في كنفهم طعم السعادة اخي و أخواتي

إلـــــــــــــى

الذين لا أمل صحبتهم و رفقتهم زملائي

إلـــــــــــــى

كل من يقدس العلم و العلماء

إلـــــــــــــى

من يؤمن أن للكلمة وقع كوقع الرصاص

أهدي ثمرة جهدي ...

شكر وتقدير

الحمد لله سبحانه و تعالى الذي وفقني لإتمام هذا العمل المتواضع

أتوجه بخالص شكري إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة "طانية حطاب"

على إشرافها على مذكرتي و على ما امدتني به من نصائح و إرشادات

ألهمتني على إتمام عملي و إنهائه

كما أوجه شكري أيضا إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين تكرموا بقراءة

هذا البحث المتواضع و إثرائه بملاحظاتهم و تقويمه بتوجيهاتهم

و في الأخير أشكر كل من ساهم من قريب و من بعيد

في إنجاز هذا العمل و لو بكلمة ....

شكرا...

بعد الكارثة التي حلت بفلسطين في العام 1948م كان لزاما على الفلسطيني أن يحتك بشعوب مختلفة، فالفلسطيني الذي شرد من أرضه أصبح في احتكاك مع شعوب الدول التي لجأ إليها، والذي بقى في فلسطين أصبح عليه أن يتعايش مع عنصر جديد فيها وهم اليهود فبدأ أدباء يصورون الشخصيات اليهودية من خلال هذا الاحتكاك، ولهذا جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ " صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية "رواية" عائد إلى حيفا "لغسان كنفاني" نموذجا.

إن اختياري لهذا الموضوع ينطلق من عدة أسباب و دواع فرضت علي الخوض فيه أهمها:استحواذ الموضوع على اهتمامي، أما السبب الثاني فيعود إلى قلة الدراسات المتخصصة في شأن صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية، وكوني طالبة ماستر تخصص دراسات أدبية مقارنة مما يفرض علي الولوج إلى مثل هذه الدراسة.

أما عن الدراسات السابقة في موضوع: صورة اليهودي في الأدب الفلسطيني، نذكر: دراسة الدكتور "عادل الأسطة" حول "اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987 وهو في الأصل رسالة دكتوراه كتبت بالألمانية ثم ترجمت و نشرت بالعربية عام 1992 وقد حاول الكاتب إبراز صورة اليهودي في الأدب الفلسطيني بشكل عام أي في القصة القصيرة، والرواية والمسرحية والشعر، وكذا دراسة الدكتور **"حسين أبو النجا"** حول اليهودي في الرواية الفلسطينية، وقد اطلعت عليها و أفدت منها و كانت دراسة طيبة دون أن أنسى رسالة دكتوراه للباحث السوري حسان سلامة حول صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية أنجزت باللغة الاسبانية في العام 1994، ولا أدري إن كان قد نشرها بالعربية ولم أتمكن من الاطلاع عليها.

وفيما يتعلق بالمنهج فقد أثرت نتيجة للتدخل فيها أن أجمع بين التحليل والنقد، لأنه السبيل الوحيد الذي يتيح الوصف من جهة، ويسمح من جهة ثانية بالتحليل الذي يساعد على إبراز الصورة الشخصية اليهودية بالموضوعية المناسبة.

وقد قامت إشكالية هذا البحث على سند يعتمد التساؤل لتحقيق الإطار النظري والتطبيقي للموضوع، وفق حوار يتكئ على جملة من الأسئلة منها: كيف ظهرت الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية؟.

كيف صور غسان كنفاني الشخصية اليهودية في رواية "عائد إلى حيفا"؟ وهل أظهرها الكاتب بشكلها المعتاد أم أنه جاء بجديد؟ وماذا أراد الكاتب من وراء تصويره؟

وإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدت خطة ضمت: مدخلا وفصلين، وخاتمة، فالمدخل كان بمثابة مفتاح للولوج إلى حياة غسان كنفاني وعالمه الروائي، فكان التطرق فيه إلى حياته وأعماله، ثم تقديم للرواية عائد إلى حيفا، وذكر موقف الدارسين العرب من الرواية ثم التطرق إلى رواية عائد إلى حيفا في عيون الدارسين الغربيين، وبعد ذلك تقديم ملخص للرواية.

أما الفصل الأول فقد خصصته للحديث عن شخصية اليهودي في الرواية الفلسطينية وقد وضعت تحته مجموعة من العناوين التي ركزت فيها على مفهوم الشخصية الروائية وذكر أصنافها وأهميتها في العمل الروائي، ثم طرقت لشخصية اليهودي، وعن أنماط متعددة من شخصيته مثل شخصية المرأة اليهودية الغاوية اللعوبة، والمرأة المتخلية وضابط المخابرات، واليهودي المهاجر، كما سأتحدث عن فكرة تجانس الشعب اليهودي الواحد التي يتغنى بها اليهود، وهل هي حقيقة أم أنها خرافة، أم أنها أكذوبة كبرى؟

أما الفصل الثاني فقد أردته لصورة اليهودي في رواية **"عائد إلى حيفا"** حيث عالجت عدة مباحث، وقد خصصت المبحث الأول لصورة الأم اليهودية، أما المبحث الثاني تطرقت فيه للحديث عن صورة الأب اليهودي، أما المبحث الثالث تعرضت فيه لصورة الابن اليهودي، والمبحث الرابع تناولت فيه اليهودي وفتنة المنتصر، وتلت هذه الفصول خاتمة تضمنت أهم ما توصلت إليه من استنتاجات.

وكطبيعة كل البحوث الأكاديمية قد واجهتني العديد من الصعوبات ولعل من أهمها ضيق الوقت، وصعوبة جمع المادة العلمية وترتيبها، أما الصعوبة الثانية تتمثل في الكثير من الروايات قد مرت على ذكر اليهودي بشكل عام، ولكنها لم تقف عنده كشخصية روائية وأن بعضها الأخر قد تناول اليهودي كشخصية روائية، ولكنها لم تشغل في العمل الروائي الحيز المناسب.

وتلت هذه الفصول الخاتمة تضمنت أهم ما توصلت إليه من استنتاجات.

وفي الختام لا أنسى فضل أستاذتي الدكتورة **"طانية حطاب"** التي أشرفت على هذا العمل وأعانتني بملاحظتها وتوجيهاتها السديدة، فإليها يرجع الفضل في إيصال العمل إلى الشكل الذي انتهى إليه، لذا أتقدم إليها بخالص عبارات الشكر والامتنان والتقدير.

1-غسان كنفاني: حياته وأعماله

أ- مولده ونشأته

غسان كنفاني من الذين عانوا ذل اللجوء والعوز إثر النكبة عام 1948م، وواحد ممن حملوا باكرا مسؤولية عوائلهم في عمر الطفولة الغضة، كما أنه يمثل الآلاف من الشباب الفلسطيني الذين حملوا مسؤولية الدفاع عن الوطن وهم القضية الفلسطينية.*

ولد غسان كنفاني في مدينة عكا بفلسطين في التاسع من نيسان (أفريل) من عام 1936م، عاش مع عائلته في يافا حيث كان والده يعمل محاميا هناك[1]، عرفت هذه الأسرة جوا متميزا مليئا بالنضال، مما انعكس على شخصية غسان الكنفاني، ومن هذا الجو نهل الحماس والروح الوطنية المغامرة التي كان همها الأول والأساسي هو الوطن وما يتبلج داخله من محن ومآسي وما يحاك ضده من مؤامرات.[2]

تلقى غسان تعليمه الابتدائي حتى شتاء 1948م في مدرسة ألفريد الفرنسية بيافا، إلى أن وقعت النكبة وعادت الأسرة إلى عكا مكثت بها بضعة أشهر حتى غادرتها مع جموع النازحين من العائلات الفلسطينية إلى لبنان في تاريخ 1948/05/16م، تاركة بيوتها وممتلكاتها وأراضيها.

تأثر غسان أيما تأثر لهذه الكارثة رغم صغره أنداك ومن لبنان إلى سوريا حيث استقرت العائلة في مدينة دمشق، وعاشت في ظروف سيئة جدا، مما اضطر غسان للعمل وهو طفل للمساهمة في إعالة أسرته.[3]

[1] صبحية عودة زعرب: غسان كنفاني (جمالية السرد في الخطاب الروائي)، دار المجد لاوي، الأردن، ط1 سنة 1996م ص12.
[2] حيدرة توفيق بيضون: غسان كنفاني (الكلمة والجراح)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1995 م، ص12.
[3] المرجع نفسه، ص 13.

ب- ثقافته:

أتم غسان كنفاني دراسته الإعدادية في دمشق، وفي عام 1953م عمل مدرسا في إحدى المدارس الابتدائية الخاصة باللاجئين في سوريا[1]، حيث كان يطالع يوميا المصير الذي آل شعبه إليه ويعي بنفسه أكثر فأكثر ما وقع وما يقع"[2]، فهكذا كانت حياته المنفى والمعاناة في المخيم والشعور بالأسى واليأس أمام عدو احتل الأرض بسهولة.

إلا أن هذه الشدة لم تضعف من عزيمة غسان ولم تصرفه عن المواصلة دراسته بل ساعده العمل كمعلم على إتمام المرحلة الثانوية حتى تحصل على البكالوريا، وانتسب بعد ذلك إلى جامعة دمشق قسم الأدب العربي حيث قضى ثلاث سنوات فصل بعدها لأسباب سياسة.

سافر بعدها إلى الكويت عام 1956م، ليعمل مدرس لمادتي الرسم والرياضة، قضى بها أربع سنوات تعد من أخصب الفترات التي عمقت ثقافته، بإطلاعه على أعمال كارل ماكس وإنجلز ولين وفي عام 1960م عاد إلى بيروت للانضمام إلى هيئة التحرير في"مجلة الحرية".

كتب غسان كنفاني في كل ألوان الصحافة، من افتتاحيات وخواطر إنسانية وعن المعارك السياسية، كما عرف بأدب المقاومة في الأرض المحتلة، حضر العديد من المؤتمرات الأدبية والصحفية، منها مؤتمر الكتاب الأسيويين والإفريقيين الذي عقد بالقاهرة سنة 1966م، عمل في جريدة **"الأنوار"** اللبنانية، ترأس مجلة **"الهدف"** سنة 1969م الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حتى استشهاده في الثامن يوليو**(جويلية)** سنة 1972م، لما اغتيل من طرف العدو الإسرائيلي، بعبوة ناسفة مزقت جسده[3].

هكذا كان غسان كنفاني مؤسسة ثقافة متكاملة، ونموذجا خاصا للكتاب السياسي والروائي والقاص، والناقد فكان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده، ونال العديد من

[1] - خالدة الشيخ خليل: الرمز في الأدب غسان كنفاني القصصي، رسالة دكتورة، سنة 1987 م، تحت إشراف الدكتور مصطفى سواق، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، ص 38.

[2] - إحسان عباس والأخرون: غسان كنفاني إنسانا وأديبا مناضلا، الإتحاد العام للكتاب الفلسطين، ط1 سنة 1974، ص10.

[3] - المرجع نفسه ص 13.

الجوائز منها "جائزة أصدقاء الكتاب" في لبنان لأفضل رواية عن رواية "ما تبقى لكم" كما نال جائزة منظمة الصحافيين العالمية **(I.O.J)** عام 1974، ونال جائزة اللوتس التي يمنحها اتحاد كتاب أسيا وإفريقيا عام 1975 م[1]، كما ترجمة أعماله لعدة لغات أجنبية من بينها رواية **"عائد إلى حيفا"**.

ج- مؤلفاته:

ترك غسان كنفاني كما هائلا من المقالات الأدبية والسياسية والدراسات النقدية المبعثرة في الدوريات، فضلا عن المؤلفات الأدبية الآتية[2]، منها الروائية مثل :

- رواية **"رجال في الشمس"** كتبها العام 1963م، المستوحاة من حياته الفلسطينية في الكويت.3
- رواية **"ما تبقى لكم"** التي كتبها العام 1966 م.
- رواية **"أم سعد"** كتبها العام 1969 م.
- رواية **"عائد إلى حيفا"** التي كتبها العام 1969م، وهي رواية وصف فيها رحلة مواطني حيفا في انتقالهم إلى عكا.
- رواية "**العاشق** "وهي رواية لم تكتمل حيث بدأ كتابتها العام 1966م.
- رواية **"الأعمى"** و**"الأطرش"** لم تكتمل.
- رواية **"برقوق نيسان" لم** تكتمل.
- رواية **"الشي الأخر"** رواية نشرت في بيروت على شكل حلقات أسبوعية تحت عنوان **"من قتل ليلى الحايك"** في العام 1980 م. [3]
- و له أيضا مؤلفات قصصية قصيرة مثل:
- **موت سرير رقم 12**، مجموعة قصصية تضم سبعة عشرة قصة، كتبها العام 1961 م.
- **"أرض البرتقال الحزين"**، تضم ثماني قصص، كتبها العام 1963م.
- **"عالم ليس لنا"**، تضم خمس عشرة قصة، كتبها العام 1965.

[1]- صبحية عودة زعرب: غسان كنفاني، ص 12، 15.
[2]- يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت لبنان ط1، 2000، ص 1032.
[3] - صبحية عودة زعرب: غسان كنفاني، ص 17- 18 .

- **"الرجال والبنادق"**، تضم ثماني قصص، كتبها العام 1968م.
- **" المدفع"** تضم ثماني قصص كانت مبعثرة في الروايات.
- كما كتب عددا من المسرحيات منها:
- مسرحية **"الباب"**، كتبها العام 1964م، وهي مسرحية في خمسة فصول.
- مسرحية **"القبعة النبي"**، كتبها العام 1966م.
- مسرحية **"جسر إلى الأبد"**، لم تنشر[1].

2- **تقديم رواية "عائد إلى حيفا".**

رواية عائد إلى حيفا للأديب والروائي الفلسطيني غسان كنفاني، سجلت نفسها كأحد أبرز الروايات في الأدب الفلسطيني المعاصر، وكانت من الأعمال التي عززت انطلاقه كاتبها إلى الأفق العالمي، "صدرت طبعتها الأولى العام 1969 م.

(بعد النكسة العربية)،[2] والطبعة الثانية سنة 1980، والثالثة سنة 1985، أما سنة 1987 صدرت الطبعة الرابعة وسنة 2001 الطبعة الخامسة، وسنة 2004 صدرت الطبعة السادسة، وهي الرواية الرابعة بعد رواية **"رجال في الشمس"**، **"وما تبقى لكم"** و**"أم سعد"** فهي رواية قصيرة لا تتجاوز صفحاتها ثلاث وسبعين صفحة (73) في نصها الروائي والأدبي، حققت نجاحا كبيرا، ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها اللغة اليابانية سنة 1969م، واللغة الإنجليزية والروسية عام 1974م، وإلى اللغة الفرنسية العام 1991م، وهذا يعني أن الرواية استطاعت أن تحلق بفكرتها وإبداعها في فضاءات الجغرافيا المختلفة، "حولت الرواية إلى عمل سينمائي أكثر من مرة" تجسد الرواية حب غسان كنفاني في العودة إلى بلده، وتعطى حيزا كبيرا للمفهوم الذهبي للوطنية والمواطنة وتبين من خلال التداعي قسوة الظروف التي أدت إلى مأساة سعيد بطل الرواية.

3- **الدارسون العرب وموقفهم من الرواية:**

لقد حظيت رواية **"عائد إلى حيفا"** باهتمام العديد من الدارسين العرب تذكر من بينها:

---

[1] - صبحية عودة زغرب: غسان كنفاني، ص20.

[2] - يوسف ذياب: الأدب والأديب في مواجهة الاحتلال فن الرواية نموذجا الكلية العلوم التربوية رام الله، فلسطين دط، دت، ص 17.

دراسة **"رضوى عاشور"** في كتابها **"الطريق إلى الخيمة الأخرى"** دراسة في أعمال غسان كنفاني عام 1977م، وترى بأن شخصيات رواية تعبر عن أفكار وقناعات أكثر منها شخصيات أخذت مداها في النمو لكي تخرج إلينا وجودات حية لها وزنها وقيمتها في الرواية.

ويأخذ بهذا الرأي **"أحمد أبو مطر"** في كتابه **"الرواية في الأدب الفلسطيني"** عام 1980 ويقول عن الرواية بأنها الإطار الفكري الذي يفسر ما حدث وما سيأتي، من خلال قناعات نظرية يرها الكاتب لذلك غلب على الرواية التناول الفكري غير مخدوم فنيا، من خلال تطور الأحداث ورسم الشخصيات إذ أن الإطار الفكري هو الذي كان يلح على الكاتب، فجاءت الشخصيات في أغلب الأحيان مجرد ناطق بمقولات فكرية جاهزة على لسان الكاتب.[1]

ولا يبتعد **"فارق وادي"** في كتابه **"ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية"** سنة 1981م عن رأي عاشور وأحمد أبو المطر كثيرا ويرى وادي أن الرواية استجابت لمتطلبات السياسية من تعليم وتحريض، إنها رواية الحوار السياسي بالدرجة الأولى وشخصياتها لا تنبض بقدر ما تمثل موقفا سياسيا يعبر عنه مباشرة من خلال الحوار ويرى أن**"سعيد س"**، و**"دوف"** وهما الشخصيتان الأساسيتان، يمثل كل منهما حالة فكرية وسياسية يطمح الكاتب من خلالهما، وعبر حوارهما للوصول إلى إجابات حول تساؤلات مطروحة: ما هي الأبوة؟ ما هو الوطن؟ وما هي القضية؟ ويذهب إلى أن **دوف** لا يمثل كيانا إنسانيا بقدر ما يمثل حالة إيديولوجية زائفة ووعي تشكل في هذا المجتمع[2]. ولا يختلف ما كتبه **"فيحاء عبد الهادي"** في كتابها غسان كنفاني الرواية والقصة القصيرة سنة 1990م عما سلف، وترى عبد الهادي أن صوت كنفاني الحاد والمباشر يعلو على الطابع الفني بشكل لا يحتمل التجاوز عنه، ويتمثل هذا الصوت المباشر الحاد في الحوار الخطابي الذي يدور بين **"سعيد س"** و**"دوف"** إنه حوار فكري يوضح ما أراده غسان، مما أفقد

[1]- خالدة الشيخ خليل: الفعالية المقاتلة في أدب غسان كنفاني الروائي، دبلوم الدراسات المعمقة، سنة 1982م، تحت إشراف الدكتور حامد حنيفي داود، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، ص 38.
[2]- غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م. م لبنان، ط 6، 2004، ص 37.

الشخصيات طابعها الإنساني المتفرد لقد ظهرت نماذج ذهنية مجرد ة لا نماذج إنسانية واقعية حية.

4- رواية "عائد إلى حيفا" في عيون الدارسين الغربيين:

توقف دارسون أوروبيون وهم يدرسون غسان كنفاني، أمام تأثير مسرحية **(برتولد برشت BEETOL BRECHT)**، دائرة الطباشير القوقازية بالعربية، ومن أبرز هؤلاء السويسري **هارتموت فيندرش** الذي نقل أكثر أعمال كنفاني إلى الألمانية وقد كتب **(فيندرش)** مقالة عنوانها **"دائرة الطباشير القوقازية"** في جريدة زيوريخ الصادرة بتاريخ 14 جانفي 1993 بين فيها صلة **"عائد إلى حيفا بمسرحية برشت"** التي تتبني على أحداث القصة التاريخية مع سليمان الحكيم، فانسجم بناء النص الكنفاني مع طرح برشت الثوري في القصة، فبينما **برشت** بأن يكون الابن لصالح الخادمة **"جرشا"**، التي عانت من ويلات وصارت والدته التي ربته، فقد حكم كنفاني لـ**"مريام"** اليهودية أن يكون لها ابن عربي في الأصل، بعدما تركته والدته بسبب الحرب، ويقدم كنفاني هذه الإيديولوجية الاشتراكية في شكل حوار فكري بين **"سعيد س"** و**"دوف"** فيقول: أنا لم أعرف **"مريام"** و**ايفرات**، ليس والذي قبل ثلاث أو أربع سنوات، منذ صغري وأنا يهودي (...) أن الإنسان في نهاية الأمر هو قضية.[1]

فالأمومة ليست في الإنجاب مثل الذي اعتقده الزوجان، وإنما رعاية وتربية، ولذا يبحث كنفاني عن الأم الأخرى لا الحقيقية، تأثر مع طرح **برشت،** حيث يرى مفهوم الأم علاقة جديدة نابعة من علاقتها بالمجتمع، وتأثيرها فيه وحمايتها للابن، ففازت الخادمة بالابن واحتفظت به واضطرت أمام قرار المحكمة الداعي إلى شد الطفل بعنف لإخراجه من دائرة الطباشير القوقازية إلى تركه خوفا من إيدائه، فقررت التخلي عنه حيا، بدلا من الظفر به ميتا، على عكس أمه فدفع الظرف الاجتماعي بالأم الحقيقية والمربية أو الخادمة إلى التمسك بالطفل، فالخادمة **"كروشة"** تعودت على الطفل ولا يمكنها الانفصال عنه، وهنا يرى **برشت** في التعود على الطفل بعد طول ملازمه تربيته والحرص عليه دافعا

[1]- عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع عزة، ط1، 1992، ص 120 .

إنسانيا يعطيها الحق في الاحتفاظ به، بينما ينظر إلى أم الطفل التي تخلت عنه أنها تريده كضمان لمستقبلها.[1]

ذهب **دارس** ألماني **اشتيفان فيلد** وهو يدرس كنفاني إلى ما يلي: "إن التشابه البنائي بين شتات فلسطيني، وشتات اليهود، الغربة GALUT قد بولغ فيه الحركتين الفلسطينية والصهيونية، وعلى أية حال فليس هناك شك في أن هناك ثمة تشابه جزئيا بينهما، فتمة تشابه قوي إلى حد ما، مابين الطريقة التي وصف فيها كنفاني أرض فلسطين في قصصه، تحديدا في المهمة المطلقة للعودة مهما كانت التكاليف، والنتائج والعواقب، وبين كتاب الصهيونيين الأوائل" وأضاف هذا الدارس: وحسب معلوماتي فقد كان أيضا العربي الأول الذي ترجم الأدب الصهيوني، قدر ما كان متوفر له، وحلل على سبيل المثال الطريقة المهنية التي صور فيها العرب في الرواية متأثر هي **(أكسودس) (ليون أو ريس).**[2]

5- ملخص الرواية :

هي الرواية تجسد حب العودة إلى الوطن، وتدور معظم أحداثها في الطريق إلى حيفا عندما قرر سعيد وزوجته الذهاب إلى هناك، بعد أن فتحت الحدود بين الكيان الصهيوني والضفة الغربية بعد حرب حزيران سنة 1679م لتفقد بيتها الذي تركاه وفيه طفل رضيع أثناء معركة حيفا سنة 1948م، وتبدأ الرواية حين وصل سعيد س وزوجته إلى مشارف حيفا، قدما إليها بسيارته عن طريق القدس، بعد غياب عشرين سنة، حيث خيم على كل منهما الصمت، رغم أنهما لم يكفا عن الكلام طوال الطريق في كل الأمور، ولما وصل مدخل حيفا، أدركا أنهما لم يتحدثا عن الأمر الذي جاء من أجله، وحينما بدأت الذاكرة في استرجاع الماضي الأليم ماضي نيسان 1948م، راحت الذكريات تنهال كالسيل دفعه واحدة، فأحس أن الماضي حاد كالسكين: "جاء الماضي الحاد مثل السكين ".[3]

بدأت أحداث الرواية من خلال وصف الكاتب لما حدث يوم الأربعاء 21 نيسان1948م فوصف الاجتياح المفاجئ للاستعمار اليهودي على حيفا، وكيف اهتزت

[1]- عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987، ص 126.
[2] - المرجع نفسه، ص 126.
[3]- غسان الكنفاني: عائد إلى حيفا، ص 14.

شوارع المدينة واكتظت رجال ونساء وأطفال مرعوبين جراء الهول الذي خلفه القصف والدمار والرصاص، كان "سعيد س" حينها قد خرج قبل القصف تاركا زوجته صفية وابنه خلدون في البيت، ولما اكتسح المستعمر الصهيوني شوارع حيفا أراد الرجوع إلى منزله لأخذ زوجته وابنه خلدون للهرب معا، إلا أن الأمر حال دون ذلك وصارت الرجعة مستحيلة لأن القصف قد اشتد في الشوارع وصارت تعج بالناس الفارة نحو الشارع الرئيسي المؤدي إلى الساحل مما صعب عليه الوصول إلي بيته، وفي هذا الوقت نفسه كانت زوجته صفية تنتظره في المنزل مع طفلها الصغير خلدون الذي يبلغ من العمر خمسة أشهر، ولما طال انتظارها واشتد قلقها على زوجها في لحظة دون وعي منها خرجت لتبحث عنه تاركة الرضيع "خلدون" في البيت، وأخذت تفتش عن زوجها وسط حشود الناس المذعورين النازحة نحو الميناء، وما إن أدركت أنها ابتعدت عن ابنها راحت تصرخ بكل ما في حنجرتها باسمه دافعة سيل الناس بكل قوتها إلى أن عثر عليها **"سعيد س"** ورافقها من محاولة العودة إلى البيت لكن الشوارع كانت قد حوصرت والناس يدفعونهم هاربين من اليمين والشمال.

حيث اضطر النزوح، واستقرا في **"رام الله"** وأنجبا ولدين وعاشوا هناك طوال عشرين سنة إلا أن ابنهما خلدون كان في الذاكرة معهما في كل الوقت ورغم محاولات سعيد س الكثيرة لاسترجاع ابنه، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، فحاول بكل الطرق لمدة ثلاث سنوات إلا أن تملكه اليأس، وبعد عشرين سنة استطاع هو وزوجته أن يعود إلى **حيفا** لزيارة منزلهما القديم في الحليصة ولما وصلا إلى المنزل وطرقا الباب، فتحت لهما امرأة يهودية من أصل بولوني اسمها **مريام** ودعتهما للدخول عندها تفاجأ لأنهما وجد المنزل على حاله لم يتغير فيه شيء نفسه الطاولة ونفس الكراسي ونفس السجادة عندها فقط أخد سعيد بعد الأشياء المحيطة به في الغرفة، فتفطن إلى أنها كانت بالمزهرية سبعة ريشات، ولكنه وجد خمسة ريشات فقط فيها سأل المرأة اليهودية التي كانت هي الأخرى ضحية من ضحايا النازية ترفض الصهيونية كمذهب ولكنها تنساق إليه بحكم ظروفها فأجابته قائلة بأنها ربما وقعت عندما لعب بها **"دوف"** وهو صغير وصمتوا جميعا في وقت واحد ثم نطقت **"مريام"** وقالت لهما إنه ابنكما الصغير وقد ربيته طيلة عشرين سنة وروت لهما القصة من

البداية عن التبني ابنهما خلدون الذي أصبح **دوف** حيث قامت الوكالة اليهودية بتسليمه لها ، كهدية مع البيت وحينها فقط أدرك **سعيد س** وزوجته صفية أن خلدون أصبح **" دوف "** وهو ابن زوجين يهوديين احتل المنزل وفكر وقلب الابن أيضا.

وما هي إلا لحظات حتى جاء خلدون أو دوف إلى المنزل وما إن أخبرته **"مريام"** عن السبب مجيئهما أي والديه الأصليين حتى انفعل وأخذ يصرخ في وجههما وكأنه يحاكمهما ويستهزئ بهما ويعاقبهما على تركه وهو طفل صغير ووصفهما بالجبن والعجز قائلا: كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا. وإذا لم يكن ذلك ممكنا فقد كان عليكم بأي ثمن ألا تتركوا طفلا رضيعا في السرير وإذا كان هذا أيضا مستحيلا فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة.....أتقولون أن ذلك أيضا مستحيلا؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي؟ عشرون سنة**!** ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا.

أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزو **!** عاجزون **!**مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل وهذا ما يثبت طغيان الفكر الصهيوني عليه وأقر بعد ذلك بأن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية، وأن الدموع لا تسترد المفقودين.

وبعد محاولات **سعيد س** فاشلة في إقناع **خلدون** بالرجوع، ظل سعيد حائرا لأن ابنه خالد قد دخل مع مجموعة من المقاومين ضد الاحتلال، وربما سيلتقي هذان الأخوة بصفة أعداء، وقال **سعيد.س** عن **دوف** بأنه هو عارنا، ولكن خلدون هو شرفنا الباقي.[1]

وهكذا تحول البيت إلى مكان حقير لا قيمة له بعد أن كان يمثل حرقة وشوق.

[1]- غسان الكنفاني: عائد إلى حيفا، ص 70.

المبحث الأول: مفهوم الشخصية الروائية

تعمل الشخصية الروائية محركا أساسيا، فهي القطب الذي يتمحور حوله البناء السردي فأهم أداة يستخدمها الروائي لتصوير الحوادث هي اختياره للشخصيات. فالشخصية هي المحور العام والرئيس الذي يتكفل بإبراز الحدث وعلى هذا الأساس "فلا يوجد فعل بدون فاعل، ولا يوجد سرد بدون شخصيات، هي تشمل بصفة عامة الأفراد الواقعيين أو الخياليين الذين تدور حولهم أحداث الحكاية أو القصة".[1]

أ - مفهوم الشخصية من الناحية اللغوية:

أصبحت الشخصية مجال دراسة وبحث العديد من الدارسين فقد تعددت المفاهيم حول مصطلح الشخصية نظرا للتطورات التي شهدتها الساحة النقدية، وفي محاولة للبحث في أهم هذه المفاهيم كان لا بد لنا من الرجوع إلى التعريف اللغوي لهذا المصطلح وذلك لتحديد أبعاده الأساسية بداية نذكر ما جاء في المعاجم العربية ومنها:

معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "الشين والخاء والصاد أصل واحد يدل على ارتفاع في الشيء من ذلك الشخص وسواد الإنسان إذا سما من بعيد، ثم يحمل على ذلك فيقال شخص من بلد إلى بلد وذلك قياسه، ومنه أيضا شخوص البصر، يقال شخيص وامرأة شخصية أي جسميته".[2]

فالشخص هنا جاء بمعنى السمو والظهور والارتفاع كما ورد في **لسان العرب لابن منظور**: "جاء من مادة شخص، والشخص والجمع أشخاص وشخوص، وشخاص.

والشخص سواد الإنسان وغيره وتراه من بعيد، وتقول ثلاثة أشخاص، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه.

---

[1] - جويد حماش: بناء الشخصية في حكاية عبدو والجماجم لمصطفى فاسي (مقاربة في السرديات، دط، منشورات الأوراس الجزائر، 2007، ص 79.

[2] - أبو الحسن أحمد بن القاسم: معجم مقاييس اللغة، في تحقيق وضبط عبد السلام هارون، (مادة شخص)، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص 645.

وفي الحديث: "لا شخص أغير من الله "الشخص كل جسم له ارتفاع أو ظهور والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص والشخيص العظيم والشخص والأنثى شخصية والاسم الشاخصة[1] من خلال تعريف ابن منظور يظهر لنا أنه قصر الشخص على معنى الذات الظاهر للعيان، وهو بذلك يؤكد الظهور الحسي المقترن بمسمى الشخص.

وبالرجوع **"للقاموس المحيط"** فقد وردت فيه مادة شخص بمعنى ارتفع بصره وفتح عينه، والشخص به كمعنى أتاه أمر أقلقه وأزعجه وأشخصه: أزعجه والمتشاخص: المختلف، والمتفاوت[2] وواضح هنا أن الفيروز أبادي قد أضاف معاني أخرى أكثر وأوسع مما جاء في لسان العرب حيث بين لنا المواطن التي تستخدم فيها الكلمة، لأنها تحمل أكثر من معنى بحسب استخدامها.

وفي **معجم الوسيط:** شخص الشيء عينه وميزه مما سواه. الشخصية الصفات التي يتميز بها الشخص عن غيره، ويقال: فلان لا شخصية له، أي ليس له ما يميزه من صفات خاصة.[3]

وواضح **أن** هذا التعريف أقرب إلى الفهم النفسي للشخصية، حيث يهتم علم النفس بوصف مظهر الشخصية وقدراتها ودوافعها وردود أفعالها العاطفية وخبراتها واتجاهاتها.

ب - مفهوم الشخصية من الناحية الاصطلاحية:

تعد الشخصية من مكونات العمل الأدبي الرئيسي، وقد وردت عدة تعريفات للشخصية نورد بعضا منها **(**أرسطو **ARISTOTE)** يعد الشخصية مفهوما ثانويا، خاضعا كليا لمفهوم الفعل[4]حيث كانت تمثل عنده ظلا للأحداث[5]، فيعني ذلك أن اهتمامه كان منصبا على الحدث أو الفعل الذي تقوم به الشخصية التي لا معنى لها إلا بأفعالها. مع ظهور الشكلان

---

[1]- جمال الدين محمد، بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6، 1997، 45/7، مادة شخص.

[2]- محي الدين بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز أبادي الشيرازي: قاموس المحيط مادة (ش، خ، ص) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، لبنان، ج 6، 1996، ص 120.

[3]- إبراهيم أنيس ورفاقه: المعجم الوسيط، مطبعة مصر، القاهرة، 1972 475، مادة شخص.

[4]- أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2005 ص 34.

[5]- ناصر الحجيلان، الشخصية في قصص الأمثال العربية، النادي الأدبي، الرياض، ط1، 2009، ص56.

بين الروس سنة1915م، وأثناء بحثهم عن العلاقة بين نماذج التحليل اللغوي والأدبي رفضوا كل المجالات الخارجية، لاهتمامهم بالجانب الشكلي والعلاقات الداخلية التي تربط بين بنياته، كما أشاروا إلى دور الشخصية.[1]

ثم جاء(فلاديمير بروب **VLADIMIR PROPP**) ورأى أن القصة تحتوي على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، والذي يتغير هو أسماء وأوصاف الشخصيات ومالا يتغير هو أفعالهم، أي الوظائف التي تقوم بها الشخصيات، وهي تمثل العناصر الأساسية الثابتة في الحكي حيث كان رأيه امتدادا لرأي أرسطو في الاهتمام بالوظائف، مع اعتبار أنها تشكل الثوابت في الحكي ولا تتغير أبدا، أما الذي يتغير فهو الصفات والخصائص التي تحدد الشخصية باعتبارها ذاتا.

بروب إذن يهمل ويقلل من عناصر الشخصية، ويعتبر أن لا قيمة لها في الحكاية ولذلك "فلأجد للدراسات السردية إذن أن تتخلى عن الشخصيات، وأن تبحث عن بنية الحكاية فيما تقدمه من الوظائف لا فيما توهم به الشخصيات.[2]

وقد دعوا إلى التخلي عن الشخصية، مما يمنع حضورها في الحكاية باعتبارها ذاتا ودعوا إلى البحث فيما تقوم به من وظائف، الوظائف التي أصبحت تبني عليها الحكاية ولا شيء غيره.

كما يعرفها (فيليب هامون **PHILIPPE HAMON**) بأنها "وحدة دلالية .... تولد من وحدات المعنى ... ولا تبني إلا من خلال جمل تتلفظ بها أو يتلفظ عنها"[3]، حيث يمكن التعرف عن الشخصيات من خلال السلوكات والأقوال الواردة عنها في النص.

ومن تم بدأ الانتباه إلى الشخصية وإعطائها مكانتها في السرد، ذلك لأن "الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة"[1]، حيث بدأ الاهتمام بالشخصية كبنية أساسية لما تحمله من دور في تأدية معاني وأفكار النص.

---

[1]- حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000 ص24.

[2]- سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، دار مجد لاوي، عمان، ط1، 2003، ص 10.

[3]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، (دط)، 1998م، ص 75.

ومن هنا لاحظ **(تزيفتان تودروف TZVETAN TODOROV)** أن عناصر الحكي تنتظم انطلاقا منها، ولهذا اقتصرت دراسة لرواية (العلاقات الخطيرة) على علاقات الشخصية التي حصرها في ثلاث قواعد وهي: الرغبة، التواصل والمشاركة[2] فيتم اكتشاف الشخصية انطلاقا من العلاقات التي تربطها بعناصر الحكي.

في حين أن هناك من يحول الشخصية إلى ضمائر أمثال **(ريكاردو RICARDO)** الذي يقول: "إذا كنا نحرص على الشخصيات، فيجب أن نقر بتحويلها إلى ضمائر".[3] فلكي نكشف عن الشخصية ونوليها عناية خاصة، يجب أن نحولها إلى ضمائر تحيل عليها وتثبت وجودها في الحكي.

إلا أن اهتمام **(جوليان غريماس JULIAN GREIMAS)** بالشخصية جعله يطورها إلى نموذج عاملي، باعتبارها شخصية مجردة، وما يهم هو الدور الذي تقوم به فجعله ذلك يميز بين العامل والممثل على أساس مستويين:

- **مستوى عاملي:** تعتبر فيه الشخصية هنا مجردة، تهتم بالأدوار ولا تهتم بالذوات المنجزة لها.

- **مستوى ممثلي:** تعتبر فيه الشخصية فاعلا قد يؤدي دورا أو عدة أدوار عاملية[4]، ذلك لأن العامل يعني الفعل الذي تقوم به الشخصية بغض النظر عن الذي يؤدي ذلك الفعل، ومنه أصبحت الشخصية مجردة أما الممثل فهو الشخص الذي يؤدي ذلك الفعل أو العام ومن هنا بدأ الاهتمام بالوظيفة التي تقوم بها الشخصية في الحكي، أي منذ الشكلانين الروس حيث سمي **(**توما تشفسكي **TOMACHEVESK)** أصغر وحدة في الحبكة بالحافز الذي يتمثل في الفعل الواحد الذي تقوم به الشخصية.[5]

---

[1]- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، منشورات دار الأفاق، الجزائر، ط1، 1999، ص 154.

[2] - سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، ص 156.

[3]- فريال سماح: رسم الشخصية في روايات حنامينه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1999، ص 17.

[4]- رومان جاكبسون وآخرون: نظرية المنهج الشكلي، نز إبراهيم الخطيب، مؤسسة لبنان الأبحاث العربية الشركة المغربية للناشرين المتحدثين، بيروت، ط1، 1982، ص 180.

[5]- سعيد يقطين: الرواية والثرات السردي، القاهرة، ط1، 2006، ص 166.

وهذا الحافز عندما يرتبط أو يلتصق بالشخصية يسهل عملية انتباه واكتشاف القارئ لها كما أن الشخصية تقوم بدور المرشد لمجموعة من الحوافز، تشكل نظاما يسمى مميزات عن ارتباطه بالشخصية، ذلك لأنه يحدد نفسيتها ومزاجها.[1]

وتوما تشفسكي يقلل أيضا من عنصر الشخصية، واعتبر الحافز هو الفعل الذي تظهر من خلاله، ونفى عنها كل حضور لها بصفتها التي تميزها عن غيرها إلا بالفعل الذي تقوم به، وأكد ذلك بقوله: "إن البطل ليس ضروريا لصياغة المتن الحكائي، وهذا المتن باعتباره نظام حوافز يمكن أن يستغني كليا عن البطل وعن خصائصه المميزة".[2]

فالقصة عنده يمكن أن تقوم بدون منح صفات للبطل، لأنه عنصر غير ضروري والمهم هنا أن يتم نقل الخبر أو الحدث من خلال ما يقوم به من أفعال.

إلا أنه في خضم تلك الدراسات أصيب عنصر الشخصية بالغموض، فأصبح من الصعب تحديد تعريف لها، وقد فسر تودوروف الإعراض عن دراسة الشخصية كونها ذات طبيعة مطاطية، جعلتها خاضعة لكثير من المقولات والتفسيرات دون أن تستقر على واحدة منها،[3] حيث كانت الشخصية عرضة لكثير من الدراسات، وهذا ما حال دون وضع تعريف محدد لها.

وفي هذا الإطار صرح (ميشال زيرافا **MICHEL ZERAFFA**): "بأنه من الصعب تحديد تعبيرا للشخصية الأدبية"[4] فأصبحت الشخصية غامضة من الناحية الأدبية وصعب تحديدها بصفتها عنصرا أدبيا.

ولما كانت النظرة إلى الشخصية لا تقوم إلا في إطار علاقتها بالوظيفة التي تؤيدها في العمل الأدبي فإن تودوروف يجرد الشخصية من محتواها السيكولوجي، لإبراز وظيفتها النحوية حيث يجعلها فاعلا في السرد.[5]

---

[1]- محمد عزام، فضاء النص الروائي، دار الحوار، سورية، ط1، 1996، ص85.
[2]- المرجع نفسه، ص 87.
[3]- فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر سعيد بنكراد، دار كرم الله، الجزائر، (د ط) 2012، ص34.
[4]- المرجع نفسه، ص 35.
[5]- سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، ص 12.

ونجد الشخصية المجردة في العمل الروائي تختلف عن الإنسان الواقعي، على اعتبار "أن الشخصية الروائية هي النقطة تقاطع والتقاء مستويين سردي وخطابي فالبنى أو البرامج السردية تصل الأدوار العاملية بعضها ببعض وتنظم الحركات والوظائف والأفعال التي تقوم بها الشخصيات في الرواية، بينما تنظم البنى الخطابية الصفات والمؤهلات التي تحملها هذه الشخصيات".[1]

فيتم إذن بناء الشخصية الروائية على أساس سردي يهتم فقط بالوظائف أو البرامج التي تقوم بها الشخصية على مدار الحكي وتنظيمها، وعلى أساس خطابي فيما يقدمه من صفات ومؤهلات تحملها هذه الشخصية، مما يمكنها من تأدية عملها في النص.

يبدو أن طبيعة الدور الذي تنهض به الشخصية يساهم في بنائها أيضا، حيث تنضج بفعل الحدث الذي تمارسه داخل القصة كما تؤثر في بلورة وظيفتها السردية.

وهذا ما يؤكده التحليل البنيوي الذي يعتبر الشخصية "علامة تشكل مدلولها من وحدة الأفعال التي تنجزها في سياق السرد وليس خارجه"[2]. حيث تمثل الشخصية علامة يتحدد مضمونها ومعناها من خلال الأفعال التي تقوم بها داخل النص السردي.

كما يعد (رولان بارت **ROLAND BARTHE**) الشخصية في التحليل البنيوي مجرد عناصر شكل يساهم في تكوين بنية النص بوصفها كائنا موجودا دون اعتبار للجواهر النفسية[3]، أي المهم هو مساهمة الشخصية في تشكيل بنية النص.

واعتبرها أيضا (فيليب هامون **PHILIPPE HAMON**) مجرد كائن لغوي محض في قوله: "إن الشخصية بناء يقوم النص بتشييده أكثر مما هي معيار مفروض من خارج النص".[4]

[1] - شريبط أحمد شريبط: سيميائية الشخصية الروائية، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، (د، ت)، ص 194.
[2]- محمد عزام: فضاء النص الروائي، ص80.
[3]- المرجع نفسه، ص83.
[4]- عبد المنعم الميلادي: الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، (د، ط)، 2006، ص25.

حيث تشكل الشخصية نظاما لغويا داخل النص أكثر مما يتم استنباطها من خارجه وهذا ما جعلها تكتسب الصفة الخيالية وتتميز عن الشخصية الحقيقية، لتواجدها من خلال اللغة والخيال.

وفي السياق نفسه يقول محمد يوسف نجم: إن الشخصية في القصة والرواية تختلف عنها في الحياة ذلك لأن الشخصية في الرواية لا تظهر إلا في الأوقات التي ينتظر منها أن تؤدي أو تقوم بعمل ما[1]، فتكون حينئذ مهمة الشخصية الروائية هي تأدية عمل معين يمكنها من الظهور عبر مسار الحكي.

وما يلاحظ أنه تم رفض الصفات الخارجية التي حفلت بها النظرة التقليدية، وتم التركيز فقط على ما تقوم به الشخصية من أعمال، مما يسمح لهذه الوظائف بأن تساهم في تحديد هويتها، ذلك لأن الشخصية في الرواية لا تحدد بالعلامة التي تعلم بها، وإنما بالوظيفة التي توكل إليها وتؤديها عبر المسار السردي.[2]

في حين نجد (يوري لوتمان **YURI l'OTMAN**) يعتبر الحدث أكثر العناصر مساهمة في بناء الشخصية، باعتبار أن سلوكها يصنع النص السردي عند قيامها بعمل ما تنتج عنه دلالة معينة، حيث إن الشخصية عند لوتمان مفهوم معطى مع البنية الدلالية المجردة.[3]

فيتحدد عند مفهوم الشخصية باعتبارها عنصرا مجردا لا تربطه بالواقع أية صلة وإنما يمكن فهمه بقيام العناصر المجسدة داخل النص ببعض العلاقات التي تربطها ببعضها فتشكل الدلالة الكلية المجردة.

[1]- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار صادر، بيروت، ط1، 1996، ص77.
[2]- سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، ص54.
[3]- المرجع نفسه، ص55.

وهناك تعدد في الآراء وتضارب فيها حول مفهوم الشخصية وبنائها، لكنها تبقى مجرد وحدة دلالية قابلة للتحليل من حيث هي ذات دال ومدلول، والدال يتحدد بمجموعة من الأوصاف والأسماء، أما المدلول فيتمثل في سلوكاتها وتصرفاتها وكل ما يقال عنها .[1]

ولذلك قيل في هذا المضمار "أن الشخصية مهما اختلفت وتنوعت فإنها مضمون يفرض شكله الخاص".[2]

حيث يتم التأكد على أن الشخصية تتكون من أوصاف صريحة تعلن عن وجودها كبناء شكلي مميز بوجوده، وأوصاف ضمنية تفهم من خلال سلوكاتها وأقوالها مما يعطي ومضمونا خاص بها.

مما جعل بارت يقول "بأنه ليس ثمة قصة واحدة في العالم من غير شخصيات".[3]

[1]- أحمد مرشد: البنية والدلالة في ورايات إبراهيم نصر الله، ص40.
[2]- نضال الشامي، الرواية والتاريخ، علم الكتب الحديث، أربد، ط1، 2006، ص226.
[3]- المرجع نفسه، ص228.

المبحث الثاني: تصنيفات الشخصية الروائية

مهما اختلفت الآراء حول تحديد ماهية الشخصية، فإنها تبقى عنصرا أساسيا ومكونا من مكونات العمل الروائي فهي التي تنهض بالحدث وتجعله ينمو عبر المسار السردي إلا أن توظيف الروائيون لكثير من الشخصيات جعلها تختلف من حيث درجة تواترها في النص، مما جعل النقاد يختلفون أيضا في تقسيم وتصنيف هذه الشخصيات إلى فئات مختلفة ويمكن أن نشير إلى بعض هذه التصنيفات فيما يلي:

- **الشخصية السكونية:** وهي الشخصية التي نجدها ثابتة ساكنة **"لا تتغير طوال السرد".**[1]

- **الشخصية الدينامية:** وهذه الشخصية عكس الشخصية السكونية تتميز "بالتغير الدائم داخل النص"[2] أي تكون حركية غير ثابتة على طول المسار السردي.

- **الشخصية المعقدة:** وهذه الشخصية "ذات عمق سيكولوجي"[3] تثير الدهشة في نفسية القارئ من خلال سلوكاتها.

- **شخصية متسقة وغير متسقة:** والشخصية المتسقة عندما لا تتناقض صفاتها مع أفعالها[4] حيث تتماشى الأفعال التي تقوم بها مع الصفات التي منحت لها.

إضافة إلى الشخصية الرئيسة التي تقوم بالدور الأساسي الهام في العمل الروائي، إذ لا يمكن الاستغناء عنها لأن الأحداث السردية تتمحور حولها، ثم الشخصية الثانوية وهي تعدد عامة للشخصيات الرئيسية و التي تقوم بدور فرعي ومساعد للأحداث.

---

[1]- بيير شارتيه: مدخل إلى نظريات الروائية، تر: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص203.

[2]- المرجع نفسه، ص205.

[3]- حسن الأشليم: الشخصية الروائية عند خليفة حسن مصطفى، مجلس الثقافة العام سرت، (د ط) 2006، ص48.

[4]- عبد المنعم زكريا القاضي: البنية السردية في الرواية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، ط1، 2009، ص68.

أ– تصنيفات (فلا ديمير بروب VLADIMIR PROPP):

اعتمد على الوظائف التي تقوم بها الشخصيات في الحكايات، التي حددها بإحدى وثلاثين وظيفة رأى أن الشخصيات الأساسية تنحصر في سبع شخصيات: المعتدي الشرير والواهب والمساعد والباعث والبطل الزائف والأميرة.[1]

حيث يمكن لهذه الشخصيات أن تحضر في جميع الحكايات وأن تقوم بتأدية تلك الوظائف مع فارق بسيط في أسمائها وأوصافها.

ب– تصنيفات (جوليان غريماس JULIAN – GREMAS):

انطلقا من أبحاث بروب جاء غريماس بالنموذج العاملي فأطلق على الشخصية اسم العامل وحددها في ستة عوامل هي: المرسل والمرسل إليه والذات والموضوع، والمساعد والمعارض.[2]

ج– تصنيفات (تودوروف TZVETAN - TODOROV):

الذي يقسم الشخصيات حسب الوظيفة التي تؤيديها كل شخصية، وهي:

الشخصية العميقة: التي تتوفر على أوصاف متناقصة وهي شبيهة بالشخصيات الدينامية.

الشخصية المسطحة: التي تقتصر على سمات محدودة، وتقوم بأدوار حاسمة في بعض الأحيان[3]، والشخصية العميقة متطورة وحركية أما المسطحة فهي تابثة ولا تتغير.

د– تصنيفات (إدوارد مورغان فورستر EDWRD MORGAN FOSTER):

ويقسمها إلى شخصية معقدة متعددة الأبعاد[4] وهي الشخصية المدورة باصطلاح عبد الملك مرتاض، الذي يرى أنها تشكل عالما كليا ومعقدة تتمتع بمظاهر كثيرا ما تتسم

[1]- عبد الله خمار: تقنيات الدراسات في الرواية "الشخصية"، دار الكتاب العربي، الجزائر، (د ط)، 1999، ص23.
[2]- عبد المنعم الميلادي: الشخصية وسماتها، ص44.
[3]- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2010، ص28.
[4]- المرجع نفسه، ص45.

بالتناقض فهي لا تستقر على حال لكثرة تغيرها كما تظهر في قدرتها العالية على تقبل العلاقات مع الشخصيات الأخرى والتأثير فيها حيث تملأ الحياة بوجودها والشخصية المسطحة هي تلك البسيطة التي تمضي على حال لا تتغير في مواقفها وأطوار حياتها[1] وهذه التصنيفات لا تختلف عن تصنيفات تودوروف من حيث أن هناك شخصية متطورة ومتغيرة وشخصية ثابتة.

هـ– تصنيفات (هزي جيمس HENRY JAMES):

الذي يصنفها من حيث علاقتها بالحبكة إلى شكلين من الشخصيات:

أولا: الشخصية الخاضعة للحبكة، ويسميها بالخيط الرابط **FICELLE** فتظهر إلا لتقوم بالوظيفة داخل التسلسل السلبي للأحداث، والشخصيات التي تخضع لها الحبكة وهي التي تكون خاصة بالسرد السيكولوجي وتكون غاية الحلقات الأساسية في السرد إبراز خصائص الشخصية[2] فهناك إذن الشخصيات التي تقوم بوظيفة الرابط بين الأحداث والشخصيات التي تعمل في السرد على إظهار ما يتميز به من خصائص .

و- تصنيفات (ادوين موير EDWIN MUIR):

يصنف الشخصيات وفقا لعلاقاتها بالحدث فرأى أن هناك ثلاثة أنواع من الروايات:

رواية الحدث التي تكون فيها السيادة على حساب الشخصية ورواية الشخصية حيث تكون كل المواقف مبنية أساسا لإمدادنا بمزيد من المعرفة عن الشخصية.

والرواية الدرامية التي تتوازن فيها قيمة الشخصية بقيمة الحدث، فتكون سمة الشخصيات تحدد الحدث والحدث بدوره يغير الشخصيات مطورا اياها وهذا يعني أنه بحسب درجة حضور الشخصية وعلاقتها بالحدث تنقسم الرواية إلى ثلاثة أنواع.

[1]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الروائية، بحث في تقنيات السرد، ص75.
[2]- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2009، ص215.

كما تصنف الشخصيات حسب الدور الذي تقوم به في السرد، فتكون إما رئيسية أو محورية وإما شخصية ثانوية مكتفية بوظيفة مرحلية فتكون الشخصية حسب الدور الرئيسي إذا كانت ذات كثافة حضورية داخل النص وبذلك تكون هي اللامة للأحداث كما قد تكون ثانوية إذا اكتفت بالظهور في لحظة معينة وعند حدث معين فقط حيث يكون حضورها ضئيلا.

ز- تصنيفات (فيليب هامون PHLIPPE – HAMON):

قد قسم الشخصية إلى ثلاثة فئات :

فئة الشخصية المرجعية PERSONNAGES REFERENTIELS:

وهي تشمل ضمنها **"شخصيات تاريخية (كنا بوليون الثالث في ريش ليون عند (**ألكسندر دوما) والشخصيات الأسطورية (كفينوس أوزوس)، والشخصيات المجازية (كالحب والكراهية) والشخصيات الاجتماعية (كالعامل أو الفارس أو المحتال) وكل هذه الأنواع تحيل على معنى ناجز وثابت تفرضه ثقافة ما بحيث أن مقروئيتها تظل دائما رهينة بدرجة مشاركة القارئ في تلك الثقافة [1]، وهذا يعني أن هذه الأنواع من الشخصيات معناها ثابت، يتم تحديده من خلال ثقافة ما حيث أن قراءتها ترتبط بمدى استيعاب القارئ لهذه الثقافة والتي يشار.

فئة الشخصيات الواصلة PERSPNNAGES EMBRAYEURS :

وهذه الشخصيات تكون علامة على حضور المؤلف والقارئ أو من ينوب عنهما في النص، حيث يمكن أن نمثل لهذه الفئة من الشخصيات بالمنشدين في التراجيديا القديمة الرواة والمؤلفين المتدخلين، الكتاب والثرثارين والفنانين، حيث يمكن أن نقول عنها أنها شخصيات ناطقة وهذا النوع يصعب الكشف عنه بسهولة بسبب تدخل بعض العناصر المربكة للفهم المباشرة للشخصية حسب رأي فيليب هامون.

[1]- فليب هامون: سيميولوجية الشخصية الروائية، ص37.

فئة الشخصيات المتكررة PERSONNGES ANAPHORIQUES:

في هذه الفئة تكون الإحالة ضرورية فقط للنظام الخاص بالعمل الأدبي والشخصيات تنسج داخل هذا الملفوظ شبكة من الاستدعاءات والتذكيرات لمقاطع من الملفوظ منفصلة وذات طول متفاوت وهذه الشخصيات ذات الوظيفة تنظيمية لا حمة أساسا، أي أنها علامة مقوية لذاكرة القارئ من مثل الشخصيات المبشرة بخير أو تلك التي تذيع وتؤول الدلائل وتظهر هذه النماذج من الشخصيات في الحلم المنذر بوقوع حادث أو في مشاهد الاعتراف والبوح.

يتبين لنا من هذا أن هذه الشخصيات ذات وظيفة تنظيمية فهي إما تبشيرية عندما تبشر بالخير أو إنذارية عندما تندر بوقوع حادث فنعمل على شحن و تقوية ذاكرة القارئ بما تنسجه من ملفوظات متباينة الطول إذ يمكن أن تكون كلمة أو جملة أو فقرة.

ح- تصنيفات حسب بحراوي:

الذي صنف الشخصيات إلى ثلاث أنواع:

أولا: نموذج الشخصية الجاذبة و جعلها تتمثل في نموذج الشيخ، والمناضل، والمرأة.
ثانيا: نموذج الشخصية المرهوبة الجانب: التي تتمثل في نموذج الأب والإقطاعي والمستعمر.
ثالثا: نموذج الشخصية المركبة[1] كان تقسيمها بحسب علاقاتها وتصرفاتها فتكون إما جاذبة أو مرهوبة الجانب، أو خاضعة لعوامل نفسية.

[1]- حسين البحراوي: بنية الشكل الروائي، ص37.

المبحث الثالث: أهمية الشخصية الروائية

تعتبر الشخصية من أهم مكونات النص السردي، حيث يعتبرها النقاد؟ أساس بناء الرواية وسبب نجاحها، فالشخصية تلعب دورا كبيرا في بناء الرواية، فهي مركز الأفكار، ومجال المعاني التي تدور حول الأحداث "الشخصية الروائية تستمد أفكارها واتجاهاتها وتقاليدها وصفاتها الجسمية من الواقع الذي تعيش فيه، وتكون عادة ذات الطابع مميز عن الأنماط البشرية التقليدية، التي نراها في حياتنا اليومية "بمعنى أن الشخصية هي مركز الأحداث في الرواية، وأن الروائي حين يطرح رؤيته فإنه يطرحها عبر شخصياته، فهي بهذا الوضع المكون الأكبر للنص ولا وجود لسرد بدون شخصية "فهو حين يتحدث عن السرد ورموزه وعلاماته، فأنها أصلا تجري على لسان الشخصيات وليست مذكورة في الفضاء هكذا"[1]، أي أن لا وجود لأي عمل سردي روائي في غياب الشخصية، لأن العناصر الأخرى مرتبطة بالشخصية نفسها حيث أن الحوار لا يمكن أن يكون دون شخصية حوارية والأحداث لا تتحرك في غياب شخصية محركة للأحداث، وإن الشخصية تتحرك ضمن الفضاء الزماني والمكاني، فالشخصية إذن هي المحرك الرئيسي للرواية من خلال تسييرها للأحداث، وهي التي يأتي على لسانها السرد ويتمحور حولها المضمون الذي يود الكاتب إيصاله للقارئ، ويرى عبد المالك مرتاض بالشأن أهميتها ودورها: "أنها قادرة على مالا يقدر عليه أي عنصر أخر من المشكلات السردية .....إن قدرة الشخصية على تقمص الأدوار المختلفة التي يحملها إياها الروائي يجعلها في وضع ممتاز حقا".[2]

نستنتج أن الشخصية هي المحور الأساسي في الرواية، وهي مركز الأحداث والمحرك الرئيسي لها.

---

[1]- عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية،مكتبة الشباب، مصر، ط1، 1982، ص121.

[2]- محمد علي سلامة: شخصية الثانوية (ودورها في المعمار الروائي عند نجيب محفوظ)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2007، ص32.

المبحث الرابع: الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية.

عرفت الشخصية اليهودية في الآداب الأوروبية بصورتين أو نمطين:

أولا: هو النمط الشايلوكي المعروف بطمعه وجشعه وحبه إلى المال.

الثاني: هو النمط غير المندمج وتم تعديل تلك الصورة عن اليهودي بعد القرن التاسع عشر وظهور الثورة الصناعية.[1]

لكن الشخصية اليهودية أو الصهيونية في الأدب العربي تختلف عن تقديمها في الآداب الأوروبية، وقد أظهرت الجامعات العربية ومراكز الأبحاث اهتماما واضحا حول صورة اليهود في النصوص الروائية والأدبية، وقد حظيت صورة الذات والأخر في الأعمال الأدبية بالاهتمام الواضح و المحور البارز.

"فمند صدور وعد بلفور عام 1917م، بدأ اليهود– بشكل علني– يشكلون طرفا أساسيا من أطراف الصراع على أرض فلسطين، إلى جانب العرب والإنجليز، إذا كان الوعد إشارة علنية للحركة الصهيونية كي تنسق خطاها مع الحكومة البريطانية، صاحبة الوعد تحقيقا للإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .... ومع تصاعد الصراع.... اتضحت جليا أطماع اليهود في سلب الوطن الفلسطيني... ومن خلال العلاقة .... التي مارسها العرب واليهود في فلسطين قبل النكبة وبعدها، كان لا بد أن تجد (الشخصية اليهودية) طريقها في الرواية الفلسطينية. [2]

ولقد كان تصوير الشخصية اليهودية في الرواية الفلسطينية "منسجما مع الدراسات التاريخية حول هذه الشخصية، ومع بعض صورها في الأدب الأوروبية، أيضا كما عرفها الواقع الفلسطيني فلقد أتيحت للمواطن العربي الفلسطيني فرصة طويلة زمنيا لمعرفة هذه

[1]- أحمد عطية أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني 1950-1975، دار الرشيد للنشر، ط1، 1994، ص409.
[2]- رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة الكويت، ط1، 1976، ص37.

الشخصية عن قرب، وعلى أرض الواقع، دون الحاجة إلى الدراسات التاريخية والنفسية حولها.[1]

1- شخصية المرأة الغانية اللعوبة:

تميز اليهودية بأنها هي التي تتحكم إلى اليوم في صلة القرابة، فاليهودي مهما كان الأب هو من كانت أمه يهودية، ومن المعروف أن تحكم المرأة في صلة القرابة يرجع إلى مجتمعات العشيرة التي كانت سائدة قبل ظهور المجتمع الطبقي، والتي كانت المرأة نتيجة للنظام الاجتماعي المتعارف عليه وتلك المجتمعات هي التي تلعب المقام الأول تماما كما يفعل الرجل في المجتمعات الطبقية، وذلك بسبب الاعتقاد أن المرأة مرتبطة "بالطابع السحري" أو "المقدس" ويتصل بهذه النقطة أن المرأة كانت أحيانا، تتزوج في الوقت الواحد "العديد من الرجال"، و بعبارة ثانية "أنه يصعب أن يلتحق المولود بأبيه بسبب عدم التأكد من الأبوة"، كما أن طبيعة المرحلة التاريخية قد ساعدت المرأة على أن يلحق بها المولود فقد كان نظام الإغارة والسبي يعرض المرأة إلى أن يتمتع بها، فإذا ما ولدت رفض الرجل أن ينسب الابن إليه لأن المولود ابن أخيدة، وإذا كان له أبناء فإنهم لا يقبلون أن يشاركهم في أبوتهم أحد من أبناء السبايا، وهكذا لم يكن هناك مفر من أن يلتحق المولود بالأم وينتسب إليها.

وفي الحالات التي تتعدد فيها الزوجات كانت بعض الأنظمة تعين من بينهن امرأة أصيلة ينسب إليها جميع أولاد الرجال، مما يؤكدان الانتساب إلى الأم كان معروفا عند مختلف الأمم.

وإذا عرفنا أن المرأة كانت وما زالت إلى اليوم تقوم بجهد مضاعف داخل البيت وخارجه تبين أنها "البوتقة التي ينفد منها إلى جوهر الحياة ودلالتها العميقة.[2]

---

[1]- رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة الكويت، ط1، 1976 ، ص44.

[2]- حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية إصدارات رابطة ابداع الثقافية الوطنية الجزائر، ط1، 2002، ص25.

ومن هنا فإنه إذا كانت شخصية الرجل في الرواية ضرورية للتعبير عن الواقع، فإن شخصية المرأة في الرواية أشد وضوحا في تعبيرها عن الواقع من شخصية الرجل، وذلك لأن تجربتها أخصب من جهة، ولأنها من جهة أخرى تكثف مشاعر التغيير التي يمر بها المجتمع.

تقدم رواية "الوارث" لـ "خليل بيدس" أنموذجا لشخصية المرأة اليهودية الغاوية اللعوبة التي تستغل حاجة الرجل الجنسية فتسلبه ماله، ثم تلقي به إلى الهاوية.

فاستير ممثلة يهودية تستدرج إليها عزيز الحلبي بطل الرواية، المهاجر من الشام إلى مصر بعد أحداث 1860، الوارث الوحيد لعملية التاجر الغني، وتخطفه من خطيبته نجلاء التي اختارها له عمه، وتحاول أن تسخره لكي تحقق طموحها، وما إن يقع في شباكها تطلب منه المال، على الرغم من أن لها راتبا من المسرح الذي تعمل فيه، إلا أنها لا تعتمد على الأموال التي تأخذها من الذين يحبونها "أنت أدرى بشدة احتياجي إلى المال[1]، ولا تمل من تكرار ذلك في كل مرة، ولكن المال الذي تطلبه لنفقاتها كما تزعم ليس عاديا، وإنما هو مال ضخم أكثر بكثير مما تتطلبه النفقات، والفلسفة في ذلك أنه مادام المحب غنيا، "لا أريد أن أقنع بالقليل مادام حبيبي غنيا[2]، بل أنها تربط بين الغنى والمحبة فالمحبوب لا بد أن يكون غنيا وإلا فإنه لا حاجة به للحب فعلى العاشق أن يكون غنيا حتى يتمكن من الإنفاق على المحبوبة، أما إذا لم يكن غنيا فإنه لا ينبغي أن يقع في حبها لأنه لا يستطيع أن يتحمل نفقاتها.

"فما فائدتي فيك وأنت صفر اليدين... كيف تكون حالتي إذا أصبح حبيبي فقيرا وليس في طاقته أن يقوم بنفقاتي[3]، وتعني بالنفقات كل ما تريده كالملبس مثلا وماذا يفيدني كل ذلك أفا أستطيع أن خيط من هيامك فروة تقيني برد الشتاء، أو من عبادتك لي ثوبا جميلا من الديباج تبتهج به نفسي[4] "أو العشاء الفاخر" أجتهد أن يكون عشاء هذه الليلة أشبه بمأدبة

[1]- خليل بيدس: الوارث، مطبعة الأيتام السورية القدس، ط1، 1920، ص4.
[2]- المصدر نفسه، ص15.
[3]- نفسه، ص10.
[4]- نفسه، ص63.

ملكية و إياك أن تقصر في شيء[1]" أو عقد من الألماس أو عربة تكون تحت تصرفها في كل لحظة "أو عربة تكون تحت أمري في كل أن"[2]، وعندما يعوزها تحديد نوع الهدية تلجأ إلى التعميم كأن تطلب منه هدية من دون أن تحدد ما هي الهدية التي تريد "قدم لي الآن هدية جديدة".[3]

المهم عندها هو أن يقوم العاشق بكل شيء من أجرة المنزل وغيرها من النفقات ولا تقنع بما يقدم لها من المال وإنما تطالبه دائما بالمزيد من دون أن تحدد سقفا: "أكتب لي إذا صكا بمبلغ يضمن سعادة مستقبلي"[4] ولا أحد يعرف المبلغ الذي يمكن أن يضمن لها المستقبل.

ومن أجل تحقيق أهدافها تلجأ إلى إثارة الغيرة في نفسية حبيبها "أخشى أن يراك المولعون بي فيغارون منك، وربما نفروا مني فأحرم على هذه الصورة مساعدتهم المالية"[5]، وحين لا يعود بمقدوره تحقيق رغباتها تحثه على سرقة عمه "إذا لم تحتشم أحدا بعد الآن فخذ من الصندوق، ومن البضاعة قدر ما استطعت، قبل أن يحل القضاء"[6] وحين تفشل خطتها تبدل السرقة بالاستدانة "فلا أسهل من أن تستدين قدر ما تريد ولم يبق لك إلا أن تقترض الأموال التي تلزمك إلا حين وفاة عمك"[7]، وهكذا إلى أن ورطته في ديون لا يمكن له تسديدها من دون أن يفتضح أمره، انتقلت إلى أحضان غيره من الشباب المغرومين بها، إلى أن قضت أخيرا مخنوقة بيد أحد عشاقها.

[1]- خليل بيدس: الوارث، مطبعة الأيتام السورية القدس، ط1، 1920، ص4.
[2]- المصدر نفسه، ص26.
[3]- نفسه، ص5.
[4]- نفسه، ص30.
[5]- نفسه، ص5.
[6]- نفسه، ص64.
[7]- نفسه ، ص67.

2- شخصية المرأة اليهودية المتخلية:

طلعنا "ناصرالدين النشاشبي في روايته **حبات البرتقال** على نموذج من شخصية المرأة اليهودية التي تتبع قلبها، وترفض أن توظف جسدها لخدمة الحركة الصهيونية[1] التي ترى أنها مسؤولة عن الشعب اليهودي كله.

تجرى أحداث الرواية في ألمانيا وفلسطين ابان الحرب العالمية الثانية، ويختار النشاشيبي لروايته هذه فلسطين مسيحي اسمه سابا يقيم في ألمانيا ابان الحكم النازي، ولا يكون نازيا، فهو ضدها، ولهذا يقاومها، ويدفع ثمنا لذلك، حيث يعتقل، ويوضع مع اليهود في معتقلات النازية.

وحين تنتهي الحرب، ويفرج عنه، يضلا مقيما في ألمانيا، ويظل على علاقة ودية مع اليهوديات التي تحاول الحركة الصهيونية إرسالهن إلى فلسطين، فيرفضن، وحين تبحث الحركة الصهيونية عن الأسباب تعرف أن الفتيات على علاقة بسابا الفلسطيني فتعمل على أبعاده إلى فلسطين وتلصق به تهمة معاداة اليهود، وحين تعلم مريم اليهودية بما فعلته الحركة الصهيونية مع حبيبها، فتعمل على اللحاق به والسفر إلى فلسطين لملاقاته هناك.

ولافت في الرواية أن مريم تخلص لحبها، وتفضح الحركة الصهيونية قائلة **"أنتم مجرمون".**[2]

وأنها تمقتهم **"إنني أكرهكم"**[3]، وأنهم ليسوا أهلها **"أنتم لستم أهلي"**[4] لأن الأهل لا يبيعون بناتهم: **"الأهل لا يبعثون بناتهم لمعاشرة الرجال في الفنادق، الأهل لا يعرضون بناتهم للبيع، أنتم تريدون استخدامنا لتنفيذ وسائلكم الصهيونية الكريهة"**[5] ولذا فإنها لن

---

[1]-الحركة الصهيونية: هي منظمة يهودية سرية مسلحة قامت عام 1931، وكان لها دورا كبيرا في تهجير اليهود إلى فلسطين والتجسس على العرب بواسطة الفرقة السوداء التابعة لها والمكونة من المهاجرين اليهود من الدول العربية راجع، عبد الوهاب محمد المسير: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية ،منتديات الوحدة العربية، ص53.

[2]- ناصر الدين النشاشيبي –حبات البرتقال –المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1962 ص12.

[3]- المصدر نفسه ص 362.

[4]- نفسه، ص369.

[5]- نفسه، ص307.

تتعاون معهم **"لن أساعدكم على استغلال عذابنا من أجل أهدافكم"**[1] وتؤكد لسابا أنها ليست اليهودية الوحيدة التي تقف ضد الصهيونية **"لست الفتاة اليهودية الوحيدة التي تقف ضد الصهيونية، بل هناك الآلاف بل عشرات الآلاف من اليهود الذين** يرفضون **الرضوخ للدعاية الصهيونية، ووعود الوكالة اليهودية بالجنة المقبلة في أرض فلسطين**[2]، وتقرر أن تتعاون مع حبيبها سابا **"إنني مستعدة لكي أتعاون معك في كل خطوة تخطوها ضد هؤلاء الصهيونيين"**[3] وهكذا تحاول أن تساعده في نسف مقر **"الوكالة اليهودية"**[4] لكنها تموت في انفجار القنابل، بينما يقوم سابا بإتمام المهمة وحده.

3- شخصية اليهودي المهاجر:

قد برزت شخصية اليهودي المهاجر في روايات **"أحمد رفيق عوض"** بشكل واضح في رواية **"بلاد البحر"** من خلال شخصية اليهودي الأثيوبي المهاجر إلى إسرائيل.

تعتبر الرواية من أكثر الشواهد الدالة على عدم تجانس ما يسمى بالشخصية اليهودية يهود الفلاشاه، وهم يهود أثيوبيا الذين يصنفون ضمن اليهود تجاوزا، فبعض علماء الأنثروبولوجيا الغربيين يصنفونهم "مسيحيين دخلت عليهم عناصر يهودية"..... وقد تسبب وصول الفلاشاه إلى إسرائيل في تقويض مقولة الشعب الواحد إلى حد كبير ولنتخيل يهوديا أمريكيا أشقر يقف بجوار يهودي من فلاشاه أسود البشرة فهل سيقتنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد، خاصة وأن أشكناز لم يرحبوا بالفلاشاه، قد رفضت الحاخامات أن تعترف بهم يهودا وطلبت أن يعاد تختينهم وأن يأخذوا حماما طقوسيا لتطهيرهم، ولكن الرفض كان لأسباب عرقية حيث رفضت مدينة إيلات تزويدهم، بالماء والكهرباء، ورفضت مدن أخرى

[1]- ناصر الدين النشاشيبي –حبات البرتقال –المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1962 ص305.

[2]- المصدرنفسه ، ص364.

[3]- نفسه، ص366.

[4]- الوكالة اليهودية: اسمها الحقيقي هو منظمة الصهيونية العالمية أو الوكالة الصهيونية وهي الأداة التنفيذية للحركة الصهيونية وتتلخص مهمتها في النشاط الايديولوجي في أوساط اليهود في مختلف بلدان العالم من جهة، وفي تجسيد الاستيطان اليهودي في فلسطين من جهة ثانية، راجع عبد الوهاب المسيري: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، منتديات الوحدة العربية، ص53.

مجرد توطينهم، بالإضافة إلى أن بنك الدم الإسرائيلي تخلص من مخزون الدم الذي تبرع به اليهود الفلاشاه.[1]

هذه هي الصورة الواقعية عن العنصرية الموجودة لدى اليهود نجدها تتجلى في الخطاب الروائي عند "أحمد رفيق عوض" حيث يصف لنا الخطاب كذب وزيف النظرية التجانس من خلال مهاجرة أثيوبي جاء إسرائيل من خلال موجه الهجرة العام 1981م، فيما عرف بعملية "موسى" حيث كان عمره ثمانية عشر عاما، وعندما وصل إلى إسرائيل ألقي به في أحد مراكز الاستيعاب حيث أدخلوه دورات تعليمية سريعة و مكثفة لينسى كل شيء وقالوا له إن هذه البلاد بلادك، أسكنوه في إحدى القرى الزراعية جنوب بئر السبع ولكن اليهود الآخرين، البيض والأغنياء، عاملوه بجفاء ولم انظم إلى الجيش لم يتحسن الوضع كثيرا، وعندما أراد أن يتزوج اضطر أن يتزوج أثيوبية فقيرة مثله .... حصل بمشرقة على منزل خشبي متواضع في حي فقير من أحياء الرملة.[2]

وبدأ يشعر هذا الأثيوبي بالدونية من خلال شعوره بالعنصرية بينه وبين أبناء شعبه فانعكس ذلك سلبا في تصرفاته على من هم أدنى منه منزلة، حسب وجهة نظره.

وهم الفلسطينيون لذلك كرههم واستعلى عليهم حتى وهو يشتري منهم ما يريد لقد عاش الأثيوبي حياة فقر وبؤس، وقد تعامل معه اليهود كأنه جرثومة فتعالوا عليه، وقبل الأثيوبي ذلك الوضع المهين والمشين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى حد السكوت على انتهاك عرضة وشرفه أمام ناظريه، فلما رأى زوجته في أحضان رجل أبيض لم يحرك ساكنا، لكنه سأل ذلك الرجل هل أنت يهودي؟ ويجيبه الرجل بنعم فيقول الأثيوبي: "من حق اليهود أن يفعلوا كل شيء حتى مضاجعة زوجاتنا!!".[3]

والمفارقة العجيبة أن ذلك أغرقه في كراهيتة لجيرانه العرب، فأوغل في عدائهم ويدفع بأولاده للالتحاق بالجيش ليعرب عن انتمائه لدولته، وليؤكد لهم أنه منتمي لبلده مثلهم

[1]- عبد الوهاب المسيري: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية ، ص53.
[2]- أحمد رفيق عوض: بلاد البحر، اتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالتعاون مع دار الماجد، رام الله – فلسطين، ط1، 2006، ص167.
[3]- المصدر نفسه ، ص167.

كما ويتم استدعاءه للخدمة في الجيش الاحتياط يشعر أن الفرصة قد أتيحت له ليثبت لليهود مدى حبه وانتمائه لدولة إسرائيل الفلسطيني هو من يدفع الثمن.

"سلموه جرافة ضخمة وسلموه مخيم جنين، وقالوا له: اهدم هذا الجزء من المخيم فأخذ يهدم البيوت وكأنها علب من الكرتون، فعل ذلك بانتشاء، كان يشعر أنه يقوم بعمل خطير ومهم، وأنه يتخلص من إحساسه القديم .... وكانت كراهية للعرب جزءا من كراهية للونه واختلافه عن اليهود الآخرين".[1]

لقد أراد الأثيوبي أن يثبت لليهود أنه مثلهم لا يختلف عنهم فهو يهودي يكره العرب ويحقد عليهم وكأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يوحد اليهود ويتفقون عليه في ظل خلافاتهم الشديدة على شيء.

لقد كان الأثيوبي يهدم بيوت اللاجئين في مخيم جنين سعيدا ومرحا بل وكان يردد الأغاني وكان يتلذذ بهرس الحيطان والأثاث وعظام الناس "ولما تحدث إلى صحيفة إسرائيلية أعرب عن سعادته البالغة وعدم ندمه، وبدا منشرحا و مرتاح الضمير.[2]

لقد قام أحمد رفيق عوض برسم شخصية اليهودي المهاجر الذي يشعر بالضعف والذل والمهانة من خلال بشرية السمراء ومن خلال كونه مهاجرا جاء ليعمل مزارعا تحت مسؤولية الأشكناز.

لقد كان رفض المجتمع الإسرائيلي لليهود أثيوبيا من منطلق عرقي، وهذا ما أكد عليه الخطاب الروائي فالمهاجر الأثيوبي يبقى صامتا أمام جريمة ممارسة زوجته الزنا، لأن الزاني هو اليهودي المؤسس وهما عبارة عن حثالة وعمال دونيين جاءوا لخدمة شعب الله المختار.

[1]- أحمد رفيق عوض: بلاد البحر، اتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالتعاون مع دار الماجد، رام الله – فلسطين، ط1، 2006، ، ص160.
[2]- المصدر نفسه، ص168.

4- شخصية ضابط المخابرات :

لقد كان لضباط المخابرات دورا بارزا في التسلط على الفلسطينيين من خلال ممارسته لأساليب رخيصة ودونية من أجل محاربة المقاومة الفلسطينية وتقويض دورها في عملية التحرير، فهو يحاول الوصول للمعلومات بمختلف الطرق والوسائل، فقد مارس التعذيب الجسدي بكل أنواعه الغير مشروعة والمحرمة دوليا من ضرب وصعق بالكهرباء .... ، كما استخدم الأساليب النفسية، بالإضافة إلى عمليات الابتزاز حيث يحاول ضابط المخابرات بالضغط على الفلسطينيين من خلال تهديدهم بالسجن بالإضافة إلى محاولات الإغراء بالمال والجنس ومن تم إسقاطهم في وحل العمالة.

قد برزت شخصية ضابط المخابرات في رواية "الجذور العميقة"[1] "فاضل يونس" حيث يستخدم ضابط مخابرات "شلومو" مختلف الأساليب لإيقاع بالشباب الفلسطينيين وإسقاطهم وفي حل العمالة، فيقول له[2]: أنا لا أريد سوى أن تحيطنا علما بكل حركة مشبوهة تلاحظها ... تقدم لي تقريرا حول ملاحظاتك لتساعدنا في محاولة محاصرة أعمال العنف والإخلال بالأمن[3] ومقابل تلك المعلومات يحصل على المال الكثير محاولا منحه الوقت لتفكير في عرضه، وعندما يذهب زهير لمقابلة ضابط المخابرات لإخباره بموقفه النهائي، يقوم ضابط بتسويق رغبته، مستعينا ببعض الوسائل الإضافية التي تساعده في إجبار الطرف الأخر على الرضوخ له فنجده يبتز زهير. أولا عن طريق تبخيس رغبته في تجنيده.

فيعتبر تعامله مع جهاز المخابرات مصلحة فلسطينية قبل أن تكون إسرائيلية، فهو يحاول إقناعه بأعمال الشعب والتخريب تؤثر سلبا على حياة الناس ومصالحهم .

"ولن تؤدي إلى هزيمة جيش الدفاع" وثانيا باستخدام المرأة للتأثير على زهير حيث تدخل عليهم روتي فتاة اليهودية أثناء الحديث وتقدم لهم المشروبات، ثم يخرج ضابط

---

[1]- عابد عبيد الزريبعي: العلاقة بين الشخصية اليهودية والفلسطينية في الرواية الفلسطينية، دار حنين للنشر والتوزيع – فضاء جديد للمعرفة، ط1، 2008، ص66.

[2]- فاضل يونس: جذور العميقة، دار الكرم –عمان، ط1، 1988، ص66.

[3]- المصدر نفسه، ص68.

المخابرات تاركا لها المجال لمراودته، وثالثا بانتهاكه جسديا عن طريق ممارسة اللواط معه معتبرا ذلك شرطا لممارسة الجنس مع روتي، ورابعا عن طريق تحذير حواسه بالشرب والمخدرات.

ومن خلال هذه العناصر الأربعة يسيطر شلومو على زهير سيطرة تامة.

المبحث الأول: صورة المرأة اليهودية

لقد كانت صورة " **مريام** " اليهودية في رواية عائدا إلى حيفا تملك مهمة أساسية لوصف الواقع اليهودي لأن تجربتها أخصب من جهة ، ومن جهة أخرى تكشف مشاعر التعبير التي يمر بها المجتمع ، لأن المرأة تعبر واسطة اجتماعية و إنسانية للتعيير و بالخصوص إذا كانت تملك رصيدا تاريخيا و دينيا مهما ، من أجل تأصيل فكرة التعبير بالطريقة التي تلائم توجهها الفكري و العقائدي ، وهذا راجع إلى أن العقيدة اليهودية هي المحرك الفكري لأعمال اليهود فيها يتعلق بالأرض الموعودة. [1]

ومن خلال هذه الملامح أعطى "غسان كنفاني" شخصية **"مريام "** اليهودية الرافضة للجرائم التي يرتكبها شعبها تجاه الفلسطينيين ولكنها عاجزة عن فعل أي شيء فتستسلم للمعاناة ومن ثم تعيش مأساة الرافضة من جهة و العاجزة من جهة أخرى. [2]

وإذا كان العجز مستويات متعددة بتعدد ما فيه من درجات ، فإن الاستسلام هو أول هذه الدرجات ، ومن الطبيعي أن تتناوله الرواية الفلسطينية ، ولعله من البديهي أن أهم ما يتصف به الاستسلام هو السلبية التي تكتفي فيها اليهودية بالرفض ، ولا تقوم في المقابل بأي شيء يخلصها منه ، وهو ما حاولت أن تقوله " عائد إلى حيفا " " لغسان كنفاني " .

فمن بولونيا إلى فلسطين مروا بميناء ميلانو الإيطالي ، جعل هذه المرأة تكتشف مع زوجها افرات كوشن العملية اليهودية و التخطيط الاستيطاني ، مما جعلها تتأقلم مع المجتمع الفلسطيني الرافض للاستعمار ، حيث يقول كنفاني " على أن الأمر يكن كذلك بالنسبة **لمريام** زوجته ، إذ أنها تغيرت تماما ذلك اليوم ، وجاء التغيير حين شهدت و هي تدور قرب كنيسة بيت لحم في الهادار شابان من الهاغناة يحملان شيئا و يضعانه في شاحنة صغيرة كانت واقفة هناك ، واستطاعت في لحظة كانخطاف البصر أن ترى ما يحملانه ، فأمسكت بذراع زوجها وصاحت وهي ترتجف : أنظر إلى أن زوجها حين نظر

1-عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913- 1987 ص 55.
2-حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 69

حيث كانت تشير لم يرى شيئا ، كان الشابان يمسحان كفيهما على طرفي قميصهما الخاكيين ، وقالت زوجته : كان طفلا عربيا ميتا ، وقدر رأيته مكسوا بالدم ، وأخدها زوجها إلى الرصيف الأخر وسألها : كيف عرفت أنه طفلا عربي ؟ فأجابته **ألم تر كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة ، لو كان يهوديا لما فعلوا ذلك** [1]، فتوظيف الحوار يكشف عن امرأة يهودية اقتنعت بكذب ادعاءات المجتمع الصهيوني ، و إن كانت الرواية لم تعرض لهذا الرفض الإنساني ، غير أنها جعلتها تقتنع بالواقع .

ومند قدوم **مريام** إلى إسرائيل تعرف تماما أن الحياة التي كانت تحلم بها ليست ما كانت تتمناه ، و السكن في البيت لعربي مطرود ليس هو الذي كانت تأمل فيه ، ومع ذلك فإنها لا تستطيع إلا أن تقبل بالواقع و تسلم به .

ولما كانت مريام هي حجر الزاوية ، فإن الرواية ستهتم بها ، وتحاول أن تقدمها بصورة معينة تتناسب مع الموقف الذي تتبناه في الرواية ، ولما كانت العلاقة مع مريام غير عاطفية فإن الجانب الجسماني لم يبرز على السطح ، مع ذلك فإن الرواية قد أشارت إلى بعض هذه الملامح إشارات سريعة ، فهي من حيث السن عجوز ، ومن حيث الطول فإن قامتها قصيرة بعض الشيء ، ومن ناحية الوزن فإنها سمينة بعض الشيء ، ولذا فإنها تجر نفسها ببطء ، أما من ناحية المظهر فإنها تلبس ثوبا أزرقا منقطا بكريات بيضاء.[2]

ومن الملاحظ أن هذه الأوصاف مبهمة لا يمكن أن تساعد على تكوين صورة جسمانية للشخصية فهي قصيرة بعض الشيء و سمينة بعض الشيء ، ومع ملاحظ ما في عبارة بعض الشيء المكررة من ابهام ، إلا أن الكاتب لم يحدد لنا الطول لكي نعرف من خلاله ما إذا كانت قصيرة أو متوسطة ، وما إذا كانت سمينة لما بين الطول و الوزن من علاقات معترف بها ، أما أن يقال إنها قصيرة بعض الشيء أو سمينة بعض الشيء ، ومن

[1]-غسان كنفاني : الأثارالكاملة ، الروايات ، مج 1 ، دار الكتب بيروت لبنان ، ط1 ، سنة 1972م ، ص
[2]- المصدر نفسه ص 364

هنا فإنه لا يمكن القول بأن الكاتب أرادا أن تكون شخصياته محددة الملامح واضحة القسمات كما يقول الدكتور واصف أبو الشباب .[1]

و الحق أن الرواية لم تعني برسم الشخصية مريام فالباحث في الكيان الجسماني مثلا يكاد يجد شيئا سوى أنها عجوز و سمينة بعض الشيء و قصيرة بعض الشيء ، أما لون العينان و المظهر ، و الأناقة ، و الصحة،وما إلى ذلك فإننا لا نعثر لها على أثر ، و إن الكاتب حين جردها من الملامح الخاصة انتقل بها من المستوى الفردي إلى الرمز.

ومن الملاحظ أيضا أن الجانب الجسماني قد قدم دفعة واحدة و ليس على مراحل كما تتطلب الأحداث و أنه لم يرجع إليه مرة ثانية ، و كأن الكاتب أراد أن يزيحه عن كاهله لكي يتفرغ لما بنى عليه الرواية ، وهو مجموعة الأفكار الذهنية المجردة .

ومن الملاحظ أيضا أن هذه الملامح الجسمانية قليلة لا تكاد تكفي للوقوف على ملامح الشخصية ، فالسن مثلا غير محدد ، و إنما اكتفى فيه بالقول أنها عجوز ، ومن المعروف أن مثل هذا الوصف غائم لا يمكن أن يدل بوضوح على أي شيء ، الأمر الذي يبرهن أن الكاتب لم يكن منصبا على الشخصيات بقدر ما كان منصبا على الأفكار التي وردت في الرواية ، ومن هنا فإن الشخصيات الروائية لم تأخذ مداها في النمو لكي تخرج إلينا وجودات حية لها وزنها و قيمتها في الرواية.[2]

فلجوء الكاتب إلى استخدام أسلوب الغموض الذي يذكر و لكنه لا يحدد بدقة كما في السن فقد اكتفت الرواية بأنها عجوز و لكنها لم تقيدها بسن محدد ، ومن المعروف أن اللجوء إلى الإبهام في تحديد السن وسيلة يلجأ إليها الكاتب في العادة للتهرب من القيام بين السن و بين ما تقوم به الشخصية في الرواية ، وذلك حتى لا يعرف أحد ما إذا كان هناك تناسب بين الاثنين أم ، ومن هنا يمكن أن يهرب الكاتب من المزالق التي قد يتعرض لها النقد ولكن الهروب لا يمكن النقاد من الإشارة إلى الإبهام لا يمكن أن يحل أية مشكلة و إنما يزيدها تعقيدا .

---

[1]-حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ، ص 71
[2]- حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية ص72

و الحق أن التقديم كان يتناسب مع الحدث ، فالعجوز لا يمكن أن تكون خطاها إلا بطيئة ولكن الذي يلفت النظر هو وصف فستانها الأزرق و الأبيض ، ومن المعروف أنهما اللونان اللذان يتركب منها علم إسرائيل ، مما يدل على أن الكاتب قد عرف مسبقا أنها ستكون ممثلة للرؤية الصهيونية ، وهذه الإيماءه تتناقض مع القول عنها أنها يهودية طيبة كما جاء في الرواية لما بين الطيبة و الصهيونية من تناقض جوهري كبيرا [1]، وبذلك لم يحدث انسجاما بين المظهر الشخصية ، وبين وجهة نظر الكاتب الذي يؤمن بأنها طيبة ولكن المظهر يثبت العكس و إذا كان الكيان الجسماني في الهوية الفردية قد اقتصر على بعض الملامح ، فإنه قد أهمل الكثير منها ، الأمر الذي يمكن القول بأن الرواية قد قدمت لنا شخصية ملامحها غير كافية .

أما من ناحية الكيان النفسي في الهوية الفردية **لمريام** ، فإن أول ما يلفت النظر فيه أن الرواية لم تكد تلتفت إليه رغم أهميته ، ليس في تحديد ملامح الشخصية، و إنما في فهم الشخصية و الحكم عليها ، فلم تتحدث الرواية عن الحياة الجنسية ، و المبادئ الأخلاقية و غيرها من الأبعاد الكثيرة التي يزخر بها هذا الجانب .

ومع ذلك فإنه يمكن الوقوف فيه على نقطة واحدة تتعلق بخيبة الأمل، و الحق أنهما لم ترد في تقديم الشخصية و لكنه يمكن التواصل إليها من خلال المواقف المتعددة في الرواية.

و أول خيبة أمل أنها في أول يوم من قدومها لإسرائيل عاشت تجربة مرة حين رأت الجنود الإسرائيليين **يقتلون طفلا عربيا و يلقونه في عربة كما يلقى الحطب** [2]، وهي تجربة إن حفرت في وجدانها لأنها **صورة أخرى من أخيها الذي قتله النازيون** [3] **وجعلتها تحاول أن تعود إلى أوروبا لو لا أن زوجها رفض ذلك**[4] ، وتعترف أنها قد **تغيرت تماما**

[1]- المرجع نفسه ص72
[2]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة ، الروايات ، ص 378
[3]- المصدر نفسه ص 145
[4]- **المصدر نفسه ص 378**

في ذلك اليوم [1]، وفي الخيبة الأمل الثانية تتمثل في أنها **غير قادرة على الإنجاب** ، ومن هنا كان العثور على خلدون هبة[2] توفر لها السكينة ، وتجعلها تعوض فيه أخاها و ذلك الطفل العربي الذي صدمها ما حدث له في أول يوم لها في إسرائيل ، ومنذ ذلك التاريخ و خلدون العربي **مشكلة في حياتها** [3]، وربته بشكل يجعله يرفض العودة إلى أبويه الحقيقيين، ولكنها عندما قدم الوالدان **أصفر وجهها** [4]من الخوف خشية اختيار دوف لوالديه الحقيقيين ، وبعد أن حسمت المعركة لصالحها انتابها الارتياح ، وأخذت تواجه الأمر بواقعية .

و إذا كان من الواضح أن الرواية لم تركز الأعلى خيبة الأمل فإن الرواية جعلت الخيبة في النهاية قمة النجاح حين اختار دوف مريام وفضلها على والديه[5]، ومن هنا فإن خيبة الأمل لم تكن في الحقيقة خيبة بالمعنى المعروف ، وذلك لأن مريام منذ الأسبوع الأول لها في إسرائيل حققت كامل أهدافها و لم تفشل في أي شيء ،فقد تحصلت على البيت وتحصلت على الولد الذي لم تكن تحلم به.

أما من حيث الهوية الفردية في المجتمع ، فإن الرواية قد أهملته تماما ، ولم تنظر إليه و لولا أن هناك إشارة إلى لفتها الإنجليزية لما هناك ذكر للجانب الاجتماعي في شخصية مريام ، وهو يؤكد من جديد أن الشخصيات هم مجرد حالات تسمح لكنفاني أن يعلن القطيعة مع الأفكار السابقة التي لم تؤد إلى مثلها ألت إليه الأحوال. [6]

ولا شك أن الإشارة إلى اللغة لا تعوض الجوانب الأخرى في الناحية الاجتماعية ، بل أنها لا تدل على أقرب الأشياء وهو التعليم ، فنحن لا نعرف ما إذا كانت قد تعلمتها في المدارس أو الحياة العلمية [7]، ومع ذلك تقتصر الإشارة على أن لغتها الإنجليزية البطيئة

---

[1]- **المصدر نفسه ص 381**
[2]- **المصدر نفسه ص 381**
[3]- **المصدر نفسه ص 383**
[4]- **المصدر نفسه ص 396**
[5]- **حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 72**
[6]- **رضوى عاشور : الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دراسة في أعمال غسان كنفاني ، دار الأسوار ، عكا ط1 ،1977م، ص64**
[7]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة – الروايات ، ص 366**

ذات لكنه أقرب إلى الألمانية ، ولا بد أن تكون لهجة البولندية في الإنجليزية بطيئة بسبب عدم الاستعمال لفترة طويلة ، ولا بد أن تكون لكنها قريبة من الألمانية كما بين كل من ألمانيا و بولندا من قرب على مستوى الجغرافي على الأقل إن لم يكن على المستوى السياسي .

و إذا كانت الرواية قد قدمت مريام من الأبعاد الثلاثة على ما في هذا التقديم من تفاوت فإن الرواية قد حاولت أن تعوض ما فاتها من نقص عن طريق وجهات النظر التي تحملها الشخصيات عن بعضها البعض وما يقوم به الروائي الذي لا يشارك في الأحداث .

وإذا كانت وجهة نظر الراوي هي أول وجهة نظر فإن الباحث يؤكد أن الراوي قد قدم وجهة نظره بطريقة السرد التقريري المباشر ، و تتخلص وجهة نظره في أن **مريام يهودية طيبة**[1] ، و أن **لا ذنب لها** [2]، فقد **فقدت أباها في شفيتز ، ورأت الجنود الألمان وهم يطلقون على أخيها الرصاص**[3].

و الحق أن الكاتب لا ينطلق هنا من الواقع بقدر ما ينطلق من ذهن مجرد لا علاقة بينه وبين الأحداث في الرواية ، ولكن لأنه يريد أن يربط بين عذاب الإنسان الفلسطيني على يد الصهاينة و عذاب الإنسان اليهودي على يد النازية ، و الحق أن قسر شيء أخر لا علاقة بينهما خروج عن المنطق ، خصوصا و أن اليهودي المعذب هو الذي عذب الفلسطيني ومن هنا فأنه لا يمكن التسليم بما ذهب إليه الكاتب ، حتى و إن كان ينطلق من فكرة مفادها أنه يجب إثبات إمكانية التعايش بين الفلسطينيين و إسرائيليين ولا شك فيه أن الكاتب لم يقارن بين العذابين مقارنة عابرة فرضتها الظروف الطارئة ، و إنما ينطق من رؤية أكيدة راسخة في جدرانه ، و الدليل أنه يؤمن بأن مريام اليهودية طيبة ، ولكن من أين استمد الكاتب طيبتها ، هل من تربيتها لخلدون تربية إسرائيلية خالصة ، أم من تمسكها

[1]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة – الروايات ، ص 364
[2]- المصدر نفسه ص 67
[3]- المصدر نفسه ص 379

به وعدم قبولها بعودته إلى أهله ، أم من قبولها العيش في البيت عربي ، أم من بقائها في إسرائيل رغم موت زوجها ورغبتها في العودة إلى أوروبا كما ذكرت الرواية من قبل.[1]

ثم إن الكاتب لا يكتفي بذلك كله ، و إنما يضيف أنه لا ذنب لها ، و الحق أننا منذ البداية لا نعرف ما هو المراد بذلك على وجه التحديد ، هل هو الذنب في القدوم إلى إسرائيل وقت تكوينها ، أم أنه يتعلق بعدم القدرة على إقناع زوجها بالعودة ، أم أنه موت زوجها في الجبهة على سيناء ، أم هو مبدأ القوة التي ساهمت غرسه في نفسية خلدون ، أم أنه في التمسك بخلدون .

أما من حيث وجهت نظر الشخصيات فإن لا فت للنظر أنها قليلة لا تكاد تذكر و تقتصر على تدخلين عابرين وزعمها الكاتب بالتساوي على كل من الطرفين فالفلسطيني بيتهما **" أنت يا سيدتي لم تقولي الحقيقة ، وحين رويتها له كان الوقت قد مضى "** .[2]

و الإسرائيلي يدافع عنها **أنا لم أعرف أن مريام و ايفرات ليسا والدي إلا قبل ثلاث أو أربع سنوات .**[3]

وواضح أن الاثنين متفقان على أنها قد أخبرته بالحقيقة من وجهة نظرها هي ، ولكن الفرق بينها أن سعيد . س يرى أنه كان قد فات الأوان ، و الحق أن مطالبة **مريام** بالتزام الموضوعية غلو لا يسمح به المنطق ، فهي عاقر ، ومن دون مأوى ، ويفرض عليها تبني الرضيع كشرط إذا أرادت أن تقر بنفسها ، فكيف تحاسب على القبول ، ولا شك أن ما فعلته مريام مع خلدون كان يمكن من وجهة أخرى أن تفعله أية امرأة ، ومن هنا فإنها لا تتحمل في ما فعلته أي جريرة ، وهو ما أدى إلى أن يقال عنها في موضع أخر لا ذنب لها

و إذا كانت هذه هي وجهات النظر حول مريام ، فإن لمريام وجهة النظر تختلف عما ورد لديهم ، فهي من ناحية الدينية ترى أنه لم يعد هناك يوم خالص بكل دين **" أنه سبت**

1- حسين النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 73
2- **المصدر نفسه ص 55**
3- **المصدر نفسه ص 377**

حقيقي ، ولكن لم يعد ثمة جمعة حقيقية ، ولا أحد حقيقي" [1]، ومن الناحية الإنسانية فإنها لا تقبل بالطريقة التي رمى بها الطفل العربي في الشاحنة ، **"وترى أنهم القوة كأنه حطبة ولو كان يهوديا لما فعلوا ذلك "**[2]، وهي من ناحية البيت ترى أن البيت بيتهما و ليس بيتها **" أنتم أصحاب البيت ، و أنا أعرف ذلك ".** [3]

وهي من ناحية البنوة ترى أنهما أبواه الحقيقيان" **أنا أعرف أنك أبوه"** [4]، وتؤكد أن الابن يشبه أباه ، **"و إن كان يهمك الأمر فهو يشبهك كثيرا "**[5]، و أنما أسمته دوف لأنهما لم تكن تعرف اسمه الأصلي أجل دوف ، ولست أدري ما كان اسمه ، ولكنها تضيف أنه في الوقت نفسه ، ابنها **"و أعرف أيضا أنه ابننا "**[6]، وتقبل من جهة أخرى أن يقرر الابن إلى أي جانب ينحاز ، **ومع ذلك لندعه يقرر بنفسه** [7]، وهي من جهة ثانية تؤكد أنها أخبرت ابنها بالحقيقة ، و أنه يعرف أن والديه الأصليين عربيان **أريد أن أقدم لك والديك الأصليين** [8] و تعترف أن الأمر كان بالنسبة إليها مشكلة مثلما كان لهما **أتعتقد أنا لأمر لم يكن مشكلة لي كما كان مشكلة لك** [9]، ومن ناحية التوقع فإنها كانت **" تتوقعها منذ زمن طويل"** [10] أما من ناحية إيفاء الموضوع حقه، فإنها ترى أنهم لم يتحدثوا عنه كفاية .

وواضح أن وجهة نظر **مريام** من تداخل مما يمكن أن تطلب الرؤية للوهلة الأولى ولكن المتأمل يمكن مع ذلك أن يصل فيه إلى الجوهر ، هي تزعم أنها إنسانية و لكنها لا ترى مانعا من أن تتبنى رضيعا عربيا ليس ابنها، ثم تستغل تلك التربية لتدعي أمام أبويه الحقيقيين أنه ابنها ، و الحق أن للتربية فضلا ولكن هذا الفضل لا يمنع من أن تعاد الأمور إلى نصابها ، وفي القرآن الكريم أمر بإلحاق الأطفال إلى أبائهم ، ولا ينفع هنا الإدعاء

[1]- المصدر نفسه ص 365
[2]- المصدر نفسه ص 365
[3]- المصدر نفسه ص 383
[4]- المصدر نفسه ص 369
[5]- المصدر نفسه ص 383
[6]- المصدر نفسه ص 383
[7]- المصدر نفسه ص 383
[8]- المصدر نفسه ص 383
[9]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 383
[10]- المصدر نفسه ص 364

بجهل الاسم كما قالت **مريام** لجملة من الأسباب أو لها أنها وجدته في البت الذي تركه فيه والداه ، وثانيا لأن بالبيت من الإشارات إلى الاسم مالا يمكن ذاكراته ، فالظروف التي أجبرت الوالدين على تركه لم تتح لهما الفرصة لكي يجرد البيت من كل علامة تدل على اسميهما ، و أن **مريام** من ناحية ثالثة لم تحاول أن تبعث عن الاسم ، وذلك لأن البحث عنه عقبة في طريقها لأنها عاقر و الرضيع فرصتها الذهبية ، و أنه ليس من المعقول أن تفرط فيها [1]، ومن هنا يسقط الإدعاء بعدم معرفة الاسم أولا لأن مريام لم تحاول ذلك ، و ثانيا لأن معرفة لن تغير من الأمر شيئا.

وواضح الأن أن الرواية لم تعطينا صورة كاملة لشخصية اليهودية و لم تعطنا أيضا صورة صحيحة ، فقد فقدت الشخصية بذلك القدرة على إبراز أعماق **مريام** بسبب التسرع الذي أشارت إليه الدكتورة رضوى عاشور.

و إذا كانت الرواية بسبب التسرع قد فشلت في تقديم شخصية فنية قادرة على الاقتناع فإن الطريقة التي قدمت بها الشخصية تساهمت في ذلك الفشل ، فقد اقتصرت الرواية على الطريقة المألوفة في الروايات ، وهي طريقة السرد التقريري المباشر ، أصرت عليها من أول الرواية إلى أخرها ، وبهذا انفصلت الشخصية عن الحدث ، و تحولت إلى بوق يتكلم بلسان الراوي ، وما زاد الطين بلة أن الكاتب كان يلجأ بين الحين و الأخر إلى إعادة ترتيب الأمور ، و التدخل لا في الحدث وحدة ، و إنما في رسم الشخصيات أيضا **" الآن بعد ساعتين من حديث متقطع يمكن إعادة ترتيب الأمور من جديد "** [2]، و الحق أن إعادة ترتيب الأمور من جديد ، و الحق أن إعادة ترتيب الأمور من جديد ، و الحق أن إعادة ترتيب الأمر وسيلة سيطر الكاتب من خلالها على الشخصيات و لم يتركها تتحرها من رغبة فتعتبر عن نفسها بنفسها ، وربما كان السبب في ذلك هو خوف الكاتب من أن تقلت منه الشخصيات لتكون الرواية فيما بعد غير التي أرادها لها الكاتب ، ومن هنا فإنه كان كلما أحسب أن الأمور تكاد تفلت نمه الشخصيات لتكون الرواية فيما بعد غير التي أرادها

---

[1]- حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص74
[2]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 371**

لها الكاتب ، ومن هنا فإنه كان ، كلما أحس أن الأمور تكاد تفلت منه ، يلجأ إلى أسلوب إعادة الترتيب من جديد ، مما يتمكن من أن يقدم كالعادة صورة حقيقية لليهودية .[1]

ويمكن أن يؤكد الباحث هنا أن سبب في الرواية لم تستطيع أن تقدم صورة حقيقية لليهودية يرجع إلى أمرين : أولها أن الكاتب لا ينظر إلى اليهودية كما هي في الواقع وإنما نظر إليها من خلال أرائه الخاصة ، أو من خلال ثقافته المعينة ، و الأكيد أن هناك أكثر من فرق بين ما هو واقع بالفعل و بين ما هو متصور وهذا ما أثبته فشل الرواية في تقديم صورة مقنعة لليهودية ، ويتمثل الثاني في الكاتب يقيم خارج فلسطين ، ومن هنا فإن معرفته باليهودية معرفة سطحية لا يمكن أن تؤهله لتقديم الصورة المرجوة ، ومن هنا اتجهت الأنظار إلى الكاتب الفلسطينيين في الأرض المحتلة لأنهم وحدهم بحكم الظروف الخاصة أقدر الناس ليس فقط على معرفة اليهود ، و إنما على تقديم صورة حقيقية و مقنعة .

---

[1]- **حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص75**

المبحث الثاني :صورة الأب اليهودي

رأينا في **مريام** الوجودية أن أفراد كوشن هو رجل عجوز من بولونيا ذا أصول يهودية قدم إلى حيفا رفقة زوجته مريام و استأجر بيت الأستاذ سعيد س سابقا برعاية الوكالة اليهودية ، التي أجرته إياه و أعطته معه الطفل " خلدون " **كامتياز لقد أعطى بيتا في حيفا نفسها و أعطى مع البيت طفلا عمره خمسة شهورا**، وذلك ما كان يتحرق إليه بعد أن تأكد كليا من أن مريام غير قادرة على الإنجاب ، بل اعتبر ذلك هبة الأهمية ، لا تكاد تصدق تأتي بخيراتها دفعة واحدة .

لم يعني الكاتب بتصوير شخصية أفرات كوشن لأنه شخصية مشاركة أو العابرة وهي الشخصيات التي نادرا ما تظهر على مسرح الأحداث ، ويكون ظهورها عابرا مرهونا بسد ثغرة سردية محدودة جدا [1]، ولقد قدمت هذه الشخصية عن طريق السرد و عن طريق الاستذكار فهي مرتبطة ذهنيا بذاكرة زوجته **مريام** و ابنه **دوف** .

الصورة الجسمانية للشخصية أفرات كوشن لم يورد السارد و صفا جسمانيا له ، وإنما اكتفى بوصفه أنه عجوز ، ومن المعروف أن مثل هذا الوصف غائم لا يمكن أن يدل بوضوح على أي شيء .

أما الكيان النفسي فقد اختفى هذا الجانب تماما ، ولا نجد فيه أي شيء عن حياته الجنسية من قبل ، ولا نجد المبادئ الأخلاقية و لا خيبات الأمل .... وغيرها من الخصائص التي يزخر بها هذا الجانب أما من الناحية الاجتماعية فإننا لا نجد سوى أنه كان ضابطا الدفاع الإسرائيلي ، و أنه قتل في معركة ، وهو ما جاء على لسان ابنه دوف **"أما أبي فقد قتل في سيناء قبل 11 سنة "**[2] ، وفي الحياة المنزلية نجد أنه لم يلتزم بموعد عودته إلى البيت وقد ورد هذا على لسان زوجته **مريام .**

[1]- عبد المنعم الميلادي : الشخصية و سماتها ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، (ط1) ،2006، ص 25
[2]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص

بدت شخصية افرات كوشن منفعلة بصورة كاملة بالدعاية الصهيونية ، ففلسطين بالنسبة له كانت مجرد مسرح ملائم للأسطورة القديمة ، ما يزال يحتفظ بنفس الديكور الذي كان يراه مرسوما في الكتب الدينية المسيحية الملونة المخصصة لقراءات الأطفال في أوروبا[1] إلا أنه بالطبع لم يكن يصدق تماما أن تلك الأرض كانت مجرد صحراء أعادت الوكالة اليهودية اكتشافها بعد ألفي سنة .

ولا شك في أن مثل هذه الشخصية لن تقيم أي اعتبار للإنسان الفلسطيني ، ولن تشعر تجاهه بأي ذنب ، بل أنه لم يبد أي انفعال مع زوجته إذ لفتت انتباهه إلى الطفل العربي الذي رماه جنودا لها غاناه في الشاحنة مثل الحطبة .

[1]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 377

المبحث الثالث: الصورة الرجل اليهودي

إن اليهودي الذي يتغلب لديه الوعي بالدين على الوعي بالوطن هو يهودي يعيش الحياة كأي إنسان أخر مهما كانت الجغرافيا، أما إذا حدث العكس و تغلب الوعي بالوطن على الوعي بالدين فإن اليهودي يتحول إلى صهيوني.[1]

و إذا كان الصهيوني هو الذي استغل المسألة الدينية في توجيه الأنظار إلى فلسطين بد من غيرها فإنه من الطبيعي أن تهتم به الرواية الفلسطينية و لعل **" عائد إلى حيفا "** أول رواية فلسطينية تتناوله في الآداب الفلسطيني.[2]

ويقدم الكاتب شخصية **" دوف "** ضابط احتياطي في جيش الدفاع الصهيوني بحكم التربية و ليس بحكم الدين ، وواضح أننا أمام حالة استثنائية ، فاليهودي هنا لس من كان يهوديا بالجبر لأن أمه يهودية ، ولكنه كان يهوديا بالاعتقاد ، لا يكفي بالتخلي عن أصله و إنما يستبد له بأصل أخر ، **فدوف** هو **خلدون** الذي لم يتمكن أبواه في ظروف النكبة أن يحملاه معهما إلى الوجه التي فرضت عليهما ،وهكذا بقي وحيدا في البيت وهو في **شهره الخامس**[3] إلى أن سلمته جارتهما زونشتاين إلى الوكالة التي عرضته على افرات كوش وزوجته العاقر **مريا** القادمين من بولندا ، فقام بتربيته تربية يهودية خالصة ، وعلماه كيف يكون يوما ، وساعة ساعة مع الأكل و الشرب و الفراش [4]، و غرسا فيه من الصغر كيف يكون يهوديا نموذجيا ، ويخاطب **دوف** والديه البيولوجي قائلا : **"مند صغري و أنا يهودي أذهب إلى الكنيس و المدرسة اليهودية و أل الكواشير و أدريس العبرية"**[5] ومن البديهي أن تثمر هذه التربية رفض والديه الحقيقيين رفضا جارحا **"هذه السيدة هي أمي**

---

[1]- حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص154
[2]- المرجع نفسه ص 155
[3]- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 401
[4]- المصدر نفسه ص 354
[5]- المصدر نفسه ص 400

و أنتما لا أعرفكما ، ولا أشعر إزاءكما بأي شعور خاص"[1] ، و يلتفت إلى مريام **" أنا لا أعرف أما غيرك ، أما أبي فقد قتل سيناء قبل 11 سنة ولا أعرف غيركما" .** [2]

ويؤكد أنه يعرف الحقيقة ، فقد أخبره بها والداه اللذان ربياه ، ولكن **" لم يتغير شيء لا لم يتغير"**[3] ، فالأبوة في جوهرها عناية قبل أن تكون مجرد إنجاب ،**" كيف يستطيع من هو ليس أمه و ليس أباه أن يحتضناه و يرعياه عشرين عاما ".** [4]

ثم يواجه لوالديه الضربة القاضية **" إنني أنتمي إلى هنا "**[5]، ثم يمنع عليهما كل خطوط الرجوع **" إنني في قوات الاحتياط الآن ، لم يقدر لي خوض معركة مباشرة إلى الآن لأصف لك شعوري ، ولكن ربما في المستقبل . "أستطيع أن أؤكد لك مجددا ما سأقوله الآن".**[6]

وواضح أن الرواية لا تتحدث عن فضول الإنسان نحو الإنسان ، وإنما تتناول قضية المقابلة بين العودة المزيفة التي فرضتها إسرائيل بعد حرب حزيران و العودة الصحيحة التي يجب أن يقوم بها الفلسطيني ، وتتفرع عن القضية الجوهرية قضايا جزائية متعددة مثل :ماهية الإنسان و الوطن ، وغير ذلك مما له علاقة بالتجريد. [7]

واهتمت الرواية بوصف دوف من الناحية الجسمانية بأنه الشاب الرجل ، و الراشد و الطويل القامة [8]، الذي كان يلبس بزة عسكرية ، لا تنسجم مع عينيه العسليتين .[9]

ومن المؤكد أن هذه الملامح أقل مما ينبغي في الشخصية الرؤية ، ومع ذلك فإن الكاتب لم يعتن بها لا، فقد اكتفى في السن بما هو مبهم ، فكلمة شاب غامضة لا تحدد السن بصفة

1- المصدر نفسه ص 402
2- المصدر نفسه ص 397
3- المصدر نفسه ص 400
4- المصدر نفسه ص 401
5- المصدر نفسه ص 402
6- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 383
7- عادل الأسطة : اليهودي في الرواية العربية جدل الدات و الأخر ، اتحاد كتاب الفلسطيني في الضفة العربية و قطاع غزة ، ط1 ، 1992، ص 88
8- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 396
9- المصدر نفسه 366

دقيقة ، وقد يعترض أحد بأن الرواية ، وإن لم تحدده بشكل دقيق إلا أنها تساعدنا على معرفته حين نجمع بين الأشهر الخمسة و بين العشرين سنة ، وعلى الرغم مما في هذا الاعتراض من وجاهة إلا أنه لا يمكن نسيان أن ذلك من اختصاص الروائي ، ولا يمكن أن نثقل به كاهل القارئ حتى لا يتغير جهده ، ولكي لا ينشغل عن العمل الفني بما هو من واجبات الكاتب [1]، ولذلك كان من واجب الكاتب أن يحدد العمر بدقة عوض الاعتماد على على الغموض.

أما فيما يتعلق بالرابط بين السن و مستوى التفكير الذي ظهر به **دوف** ، فإنه من المنطقي أن أفكاره في الغالب أكبر من السن ، ولكنه يمكن أن يكون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة وبخاصة أن الظروف التي تعيشها المنطقة يمكن أن تتضح الإنسان منذ نعومة الأظافر ولكنه لا يجب نسيان أنه مجرد استثناء إن صح في حالة فإن لا يصح في كل الأحوال[2] يتبين لنا أن النظج العقلي الذي ظهرت به شخصية دوف ربما يكون سببه هو الأجواء التي تعيشها البلاد ولكن هذا ويبقى مجرد احتمال فقط.

وفي القائمة اكتفى بانطلاق الطول دون تمييز، فنحن لا نعرف ما إذا كان طوله عاديا مثلا، أو أنه خارج عما هو عادي، ولا يختلف الأمر كثيرا في كلمة الرجل، فهي أيضا عامة، وليس فيها ما يميز إنسانا عن الأخر .

أما فيما يتعلق بالرشد ، فإن الرواية وهي تعني بالمعنى القريب قد أهملت عن غير قصد بالطبع أن الرشد يمكن أن يكون أن يكون حجة على وجهة النظر في الرواية من حيث أن إعطاء دوف صفة الرشد يدعم وجهة نظره هو ، وليس وجهة نظر الرواية ، وذلك من خلال منح دوف صفة الرشد يخدم الشخصية ولا يخدم العمل الفني ، وان لم يحقق الغرض على مستوى الدلالات الروائية فإن يمس في أقل الأحوال الجانب الفني حيث تهتز العلاقة بين الدال و المدلول ، ويتأكد عدم اهتمام الكاتب بالصفات ، أنه لا يحاول أن تكون منطقية تنسجم مع الأحداث ، فالعينان العسليتان ليس لهما في الرواية أي

1- حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ، ص 153
2- المرجع نفسه ص 153

دور ، وليس لطول دور واضح ، اللهم إلا إذا أولناه فلسفيا كأن نصل فيه مثلا إلى أنه رمز لتفوق إسرائيل على العرب وهو كما يبدو تأويل بعيدا الاحتمال.[1]

ومن المؤكد أن الاكتفاء في الكيان الجسماني بصفات قليلة لا يمكن أن تساعدنا على تقديم صورة قادرة على تقريب هذه الشخصية إلى الذهن المتلقي ، وبعض النظر عما في هذه الصفات من إبهام ، تأكد أنها لا علاقة لها بما يجري في الرواية من أحداث .

ومع ذلك فإن هذه الصفات لا تخلو على الرغم مما فيها من سلبيات من بعض الإيجابيات ففي السن مثلا حدث الانسجام بين العمر و حماس الشباب و مثاليتهم .

و الحق أن الرواية لم تكتف بإهمال الكيان الجسماني و حدة ، وإنما أهملت الجوانب الأخرى ، فلم تعط اهتماما للجانب النفسي فإننا لا نجد فيه أي شيء عن الحياة الجنسية ولا نجد المبدأ الأخلاقي ، ولا خيبة الأمل ، و لا موقف من الحياة ، ولا العقد و لم تحدد قسمات الشخصية الإنسانية ، وإنما اقتصرت على الإدعاء دوف بانهيار ، **"وفقد الثقة بنفسية دفعة واحدة ، و أنه ينكفئ على نفسه كشيء محطوم "**[2]، ومن ثم فإن الذنب سيكون عليه وحدة **"سيبدأ الذنب منذ هذه اللحظة ليصير مصيرك"**[3] ، ويلاحظ أن هذا الإدعاء يجيء عن طريق السرد المباشر حين يتدخل الكاتب على لسان الشخصية المتحدثة ، وإذا عرفنا أن الأوصاف ليست أكثر من ردة فعل لما قالته الشخصية تأكد أنها يمكن ألا تكون صحيحة ، خاصة و إن الشخصية تحاصر المتحدث في خانات ضيقة الأمر الذي يحتم عليه تعويض إحساسه بالفشل ، وعكسه على الشخصية و لو بتعسف[4] و لو كان بالفعل كما تدعي الرواية لكان معنى ذلك أنه تخلى عن موقفه، ولما لم يتخل عنه فإن هذه الأوصاف لا تزيد عن أن تكون وهما من أوهام الشخصية المتحدثة.

---

[1]- **حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 153**

[2]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 406**

[3]- **المصدر نفسه ص 404**

[4]-- **حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 154**

ونفس الشيء فيما يتعلق بالناحية الاجتماعية ، فنحن لا نجد شيئا عنه سوى أنه "**ضابط احتياطي في جيش الدفاع الإسرائيلي** "، وأنه في الحياة المنزلية" **لم يلتزم طوال عمره بموعد عودته إلى البيت**[1] ، و أنه في التعليم ذهب إلى **المدرسة اليهودية** ، **ودرس العبرية، و أنه في الدين يذهب إلى الكنيس .**[2]

وواضح أن هذه الملامح لا تقدم الكيان الاجتماعي من أجل رسم أبعاد الشخصية ، و إنما لجأت إلى اللقاء الضوء على بعض الملامح التي لا تقدم الكثير على المستوى الاجتماعي لتوحي أن الخلفيتين اللتين انطلق منها كل **من سعيد .س** و **دوف** متوازيتان ، لا يمكن أيضا أن يتقاطعا معينة مما يوحي باستحالة التعايش بينهما .

وإذا كانت الرواية قد قصرت قليلا في الملامح الفردية **لدوف** فإنها لم تقتصر في وجهة النظر ، و أعطت **دوف** الفرصة ليعبر عن موقفه من موضوعات كثيرة ، فهن حيث العلاقة بين الوالدين و الابن يستنكر موقف والديه " **كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا و إذا لم يكن ذلك ممكنا فقد كان عليكم بأي ثمن ألا تتركوا طفلا رضيعا في السرير**

و إذا كان هذا أيضا مستحيلا فقد كان عليكم ألا تكتفوا عن محاولة العودة [3]، ثم يتساءل بمرارة " **لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ، عشرون سنة ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك**[4]، ثم يخبره بما كان عليه أن يفعل **لو كنت مكانك لحمت السلاح من أجل هذا** [5]، وفي النهاية يتوصل إلى **أن الدموع لا تسترد المفقودين و لا الضائعين و لا تجترح المعجزات كل دموع الأرض لا تستطيع حمل زورقا صغيرا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود**[6]**.**

---

[1]- **- غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 382**
[2]**- المصدر نفسه ص 406**
[3]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 406**
[4]**- المصدر نفسه ص 406**
[5]**- نفسه ص 409-406**
[6]**- نفسه 409**

وفيما يتعلق بالعرب يرى أنهم عاجزون مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف و الشلل و أنهم غير متحصرين لو تصرفتم كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي أن يتصرف .

وواضح أنه يأخذ على الوالدين ثلاثة أمور أساسية على التوالي: الخروج من حيفا، تركته في السرير، وعدم العمل على استعادته.

ومن المؤكد أنها و إن كانت تبدو للوهلة الأولى مقبولة ، إلا أنها في الحقيقة لا تستند على منطق معقول ، وذلك لأن مقدماتها لا تؤدي إلى نتائج صحيحة ، ومن المعروف أن النظر إلى الأشياء من الخارج لا يمكن أن يعطي حكما سليما لأنه يكتفي برؤية الخارج و لا يتعمق في الدوافع و الأسباب الداخلية التي أفرزت تلك الأشياء ، ومن البديهي أن الرؤية من الخارج في العادة انتقائية ، أي أنها ليست الرؤية الكاملة ، كما أنها ترتبط في الغالب بالحالات النفسية التي تصاحب تلك الرؤية و تصبغها بصورة غير تلك التي يمكن أن تتوصل إليها عين أخرى ، و إذا أضفنا إليها زاوية الرؤية تأكد أنه أمامها من العقبات ما يمنعها من إدراك الصواب قبل أن تصدر الأحكام ، ويتبين إذا ما أدخلنا في الاعتبار المستوى الذهني للرؤية أنه لا يمكن القطع بصحة تلك الأحكام ، أما إذا تزودنا باختلاف التوقيت استحالة الاتفاق على صواب تلك الأحكام. [1]

و فيما يخص موضوع الخروج من **حيفا** ، فإنه من الواضح أن **دوف** يتجنى لأن الوالدين لم يخرجا و إنما اضطرا للخروج ، و أن هناك فرق بين الخروج عن إرادة و الخروج بالإكراه ، وواضح أن الفلسطيني لم يكن ليخرج لولا أنه أرغم على ذلك ، ومن هنا فأنه من التعسف أخده بنصيحة الآخرين، ويمكن تصور مدى عبثية الطرح و إذا عرفنا أن الجلاد هو الذي يستنكر على الضحية أنها ضحية ، ومن المعروف في التاريخ أنا الأمم تخرج من فترة إلى أخرى ومن مكان إلى أخر ، وإن اليهود هم أكثر الأمم شهرة في الخروج ، وأنهم بهم يضرب المثل في الخروج و ليس بالفلسطيني ، فمثل لقد خرج اليهود من أرمينية إلى الشام في فترة معينة ، و أنهم خرجوا من فلسطين إلى فارس

[1]- حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية ، ص157

وخرجوا من فارس إلى فلسطين ، ثم خرجوا من فلسكين إلى الشتات ، ثم خرجوا من الشتات إلى فلسطين ، و أنهم سيخرجون من فلسطين إلى شتات جديد في مرحلة قادمة ومن هنا فإنه لا يحق لهم مؤاخذة الفلسطيني على خروج من حيث المبدأ أولا ، لأن من كان بيته من زجاج فإن عليه ألا يتعلم قذف البيوت الأخريين بالحجارة ، وثانيا لأنهم هم الذين أرغموه على هذا الخروج [1]، فإذا كان مسموحا لأحد أن يعيب على الآخرين الخروج ، فإذا كان مسموحا لأحد أن يعيب على الآخرين الخروج من أوطانهم إلى غيرها من البلدان فإنه بالتأكيد ليس اليهودي من جهة و لا يحق له من جهة ثانية أن يقدح الآخرين بما فيه نفسه .

أما ربط الخروج بترك الابن فإنه تنويع على الغرف أكثر من كونه موضوعا حديدا و الحق أنه بتجرد الخروج من الإرادة الشخصية فإن عملية الترك تفقد مبرراتها الموضوعية ، أما العودة من أجله فإنه لا يزيد عن أن يكون مما في جعبة الحاوي ، إن لم تكف واحدة فإن هناك ثانية و ثالثة و .....و....... و الحق أن الرواية قد قدمت أكثر من دليل على أن الوالدين لم يتركا ابنهما ، و لم ينساه ، فقد **ظلت الأم شهورا بعد ذلك تحمل في فمها صوتا مبحوحا مجروحا لا يكاد يسمع** [2]، و أنهما تجنبا تسمية أيا من أولادهما الثلاثة ذلك الاسم[3] ، و إن أباه قد عاد للمرة المئة فاشلا عاجزا عن دخول إلى **حيفا**[4] ، و أنهم لم يتركوا وسيلة إلا لجئوا إليها من أجله **" أنت تعرفين كم سألنا و كم حققنا ، و تعرفين قصص الصليب الأحمر و رجال الهدنة و الأصدقاء الأجانب الذي بعثناهم إلى هناك** [5] مما يدل على أنهما لم يتخاذلا، ولم يكفا عن المحاولات [6]، و أنهما على الرغم العشرين سنة مازالا يذكرانه ، و يبحثا عنه ، و يأملان أن يلقياه ذات يوم ، فكيف يمكن اتهامهم بعد ذلك بالتخاذل .

---

[1]- حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية ، ص155
[2]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص 355**
[3]- المصدر نفسه ص 358
[4]- **نفسه ص 381**
[5]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص359**
[6]- **حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية ، ص155**

وإذا كانت هذه هي وجهة نظره في الآخرين ، فقد كان الآخرين فيه رأي ، وإن كانت هذه الآراء محدودة لعدم اتساع المجال ، **فمريام** ترى أنه **يشبه أباه**[1] ، و أنه **أصبح راشدا** [2] و أبوه من خلال **خطواته على الدرج يبررانه شاب و متعب** . [3]

و الملاحظة الأولية على هذه الآراء أنها تصدر من طرفين هما في الواقع خصمان ، وأن **مريام** لا ترى فيه إلا الشباب و الرشد ، بينما لا يرى فيه أبوه إلا التعب و الأعياء ، ومن الواضح أن هذه الآراء تكتسب أهمية حقيقية لأن لها علاقة بالحدث ، و لأنها تمهد لما سيقع .

على أنها أيضا على الفرق بين إحساس الأب الذي أنجب وعانى ، وإحساس الأم التي لم تنجب ، فمريام تتجرد من المشاعر الفياضة ، أما الأب فإن الإحساس يسبقه إلى التأسي لولده ، وإن كان قد حيص على أن يتم ذلك في شموخ وكبرياء .

أما فيما يتعلق بكيفية تصوير شخصية دوف فإن الذي يلفت النظر هو أن الراوي لا يستنطن أعماق الشخصية ، وإنما يصفها من الخارج ، ومعنى ذلك أن يتركنا في الخارج ويمنعنا من الولوج إلى الأعماق الخفية في الشخصية ، وحين يحس أن الأمر يحتاج إلى شيء من الداخل لتفسير ما يحدث ينتقل دوما من الماضي إلى الحاضر ، في محاولة للتعويض وليس للبحث في ذاتية الشخصية ، ومن هنا فإن هروبه لا ينجح في تغيير قناعتنا بأن رسم **دوف** لا يمكن أن ينجح إلى إذا كان هناك ما يدل على الداخل .

و الذي لا شك فيه أن رسم **دوف** لا يمكن أن ينجح إلى إذا كان هناك ما يدل على الداخل .

و الذي لا شك فيه أن رسم **دوف** لا يمكن أن ينجح إلى إذا كان هناك ما يدل .

و الذي لاشك فيه الأن هو أن غسان كنفاني وإن حاول أن يقدم صورة فكرية للشخصية الصهيونية ، إلا أن رسم **دوف** لم يستجيب لتلك الصورة المقررة و المتفق عليها .

---

[1]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص369**
[2]- **المصدر نفسه ص 383**
[3]- **نفسه ص 395**

المبحث الرابع :اليهودي و فتنة المنتصر

اقترب وعي غسان كنفاني في طور من أطواره، من وعي فلسطيني مأخوذ بالمطلقات و إذا الشر مطلق و الخير مطلق ، وانتصار الخير المطلق قائم في هزيمة الشر المطلق .

كل شيء واضح وشفاف و معروف النهاية **:" هل أستطيع أن أقتل يهوديا دون أن أرتجف "** كما لو كانت هزيمة اليهودي المحتجب تحتاج إلى الرصاص و القلب الجسور لا أكثر[1] غير أن **" عائد إلى حيفا "** تكتشف عن انتقال غسان من ثنائية الخير و الشر إلى ثنائية الإنسان المقاتل و الإنسان العاجز .

تتضمن رواية **عائد إلى حيفا** أطروحتين أساسيتين هما:

أ- الصهيوني جدير بفلسطين التي احتلها، لأنه قاتل من أجل احتلالها بصدف واضح و أفضى قتاله الصادق إلى تحقيق حلمه الظالم ، أي أن الصهيوني جدير بفلسطين قدر ما أن فلسطين جديرة به .

ب- يصبح الفلسطيني جديرا بفلسطين، حين يساوي فعله المقاتل، من أجل استعادتها الفعل الصهيوني المقاتل الذي أفضى إلى احتلالها ، أي حين يصبح الفلسطيني صهيونيا مقلوبا

تتضمن هذه الأطروحتين ، التي تشير التحفظ و توقظ الحفيظة إلى فكرتين مساوقة لها فهي أولا تحتفل بالإنسان المبدع في فعله المبدع ، تاركة طقوس الخير و الشر لو عاظ الفضيلة المجردة ، وهي تجعل ثانيا من الصهيوني مرجعا للفلسطيني و أستاذ له ، طالما أن أستاذ يعترف بنجاحه و بقدرته على هزيمة من لم يكن أستاذا مثله [2]، كأن **غسان** يستعيد شاردا الحكمة الضالة التي تقول : **" من علمني حرفا كنت له عبدا "** ، ذلك أن بطل **غسان** الروائي تعلم من أستاذه الصهيوني جملا كثيرة ، ليس أخرها ضرورة الذهاب الصحيح إلى البندقية الصحيحة .

---

[1]- فيصل دراج : صورة اليهودي الغائمة في مرايا غسان كنفاني ، مجلة الكرمل (رام الله .الخريف) 1997، ع 53، ص25

[2]- المرجع نفسه ص 25.

نرجع الآن إلى الأطروحتين التي تشير إليها الرواية، و نتوقف أمام الأولى منها المحدثة عن جدارة الصهيوني بامتلاك فلسطين و بحقه المنطقي في أن يعيش فيها تقول رواية غسان : **"كيف يستطيع من هو ليس أمه و ليس أباه أن يحتضناه و يربياه عشرين سنة** [1]، و يخلص السؤال ربما ما أرادت الرواية أن تقوله ، من دون أن تبخل في إجابة ساخرة و صحيحة : فالولد لمن تكفل برعايته ، و الأرض لمن دافع عنها ، و الوطن لمن أحسن القتال في سبيله ، و الفلسطيني يعترف بقصوره و تقصيره و لا يلوم المدينة التي تنهره لأنه دخل اليها من بوابة الإخفاق .

يقول سعيد: " فلسطين بالنسبة لنا و أنت، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة و انظري ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار..... غبارا جديدا أيضا "[2]**و** لأن فلسطين أكثر من ذاكرة.

فالفلسطيني المكتفي بالذاكرة ، لا يلتقي بفلسطين التي توهمها و لا بمدينة الطفولة التي جاء إليها : **" إنني أعرفها ، حيفا هذه و لكنها تنكرني "**[3] **،" و أفتش عن فلسطين الحقيقية ، فلسطين التي هي أكثرة من ذاكرة ".**[4]

نطرح الرواية على لسان الراوي، سؤال واضح الإجابة **" كيف يتخلى الأب عن طفله "** و يعطي ....بطل الرواية الفلسطيني جوابا يوافق السؤال المطروح ، إلى أن يأتي الصهيوني و يمنح الجواب الإضاءة الضرورية : وإذا كان الوعي الفلسطيني المرتبك يرى في الوطن أكثر من ذاكرة ،من دون أن يحسن تحديد الجزء الصحيح الغائب ، فإن الوعي الصهيوني ، الذي لا يختصر الوطن إلى ذاكرة ، يقدر على تحديد الصائب و الخاطئ و يرشد الفلسطيني إلى الدرب الذي لا خطأ فيه ، يقول **دوف** العسكري الصهيوني مخاطبا الفلسطيني العاجز :**" ماذا فعلت خلال عشرين عاما كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا ، أيوجد سبب أكثر قوة ؟ عاجزون.....عاجزون...... مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف و الشلل ..... "** إن سؤال الجندي الصهيوني و إجابته هما سؤال الوعي الفلسطيني و إجابته، بعد انتقاله من

[1]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص401**
[2]- **المصدر نفسه ص 412**
[3]- **نفسه ص 343**
[4]- **نفسه ص 411**

مدار الغفلة إلى مدار اليقظة كما لو كان الطرفان قد توجد في حوار صريح ينقب عن معنى الإنسان و الوطن ، و لهذا ، فإن الجندي الصهيوني ، وهو محارب و يحمل السلاح لا يكتفي في جوابه ، بالإشارة إلى حمل السلاح ، بل يشير أيضا إلى والده الذي مات في أرض المعركة : **" أما أبي فقد قتل في سيناء قبل 11سنة"** [1]هذه الجملة الأخيرة المحارب ، أي تعين وضعا مخالفا للوضع الفلسطيني و نقيضا له ، لا يتخلى فيه الأب عن ابنه ولا يتحول الوطن فيه إلى قبضة من الذكريات في الذاكرة علاها الغبار[2] فعلى نقيض الأب الفلسطيني ، الذي يتخلى عن مدينته و يزجر ابنه الذي التحق بصفوف الفدائيين، فإن الأب الصهيوني مات في المعركة و خلف ولدا يستعد للمعركة باستمرار .

يكشف الوعي الفلسطيني ، في حواره مع عدوه ، أن الأرض جديرة بمن يدافع عنها و أن العار ، كما الشرف ، إلى المعركة ، بعيدا عن وعي ساذج يرى في هزيمته خطأ من أخطاء العدو لا أكثر ، تقول الرواية : **" إن دوف هو عارنا ، ولكن خالد هو شرفنا الباقي "** [3] يبين القول أن الفلسطيني لم يتعرف عن شرفه الباقي ، إلا بعد أن تلقى صفعه موقظة من عاره الأول ، صفعه فيها الكثير من الخبرة و البصيرة و الحكمة المجربة غير أن القول لا يلبث شيء بشيء أخر أكثر قسوة و خطرا : إن كان خالد هو الشرف الباقي المحتمل فإن دوف هو الشرف الحقيقي المتحقق ، ولكن بشكل مقلوب [4]، لان الشرف المحتمل الذي سيحظى به الفلسطيني عن طريق القتال القادم ، قد حققه الصهيوني في معاركة القديمة و المتجددة في أن واحد و كل من الطرفين جديران بالاحترام ، لأن أولهما مقاتل حقيقي ولأن ثانيهما يعمل على إتقان القتال و احترافه و لو بعذر من تطرح الفكرة الثانية العلاقة بين الجلاد النجيب و الضحية اللامعة أو العلاقة بين المهزوم الصبور و المعلم الذي حقق لذاته الانتصار ، يقول الجندي الصهيوني : **" تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتها فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب "** [5] يخبرهم بالبقاء المؤقت عن ضياع مستمر ،بقدر ما تحيل التسوية القائمة على الحرب على جملة حروب لاحقة ومهما تكن

---

[1]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص398**

[2]- **- فيصل دراج : صورة اليهودي الغائمة في مرايا غسان كنفاني ص 26**

[3]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص412**

[4]- **فيصل دراج : صورة اليهودي الغائمة في مرايا غسان كنفاني ص 28**

[5]- **غسان كنفاني : الأثار الكاملة –الروايات ، ص413**

تلاوين القول فإنه يعلم الفلسطيني معنى البيت و الإقامة الثابتة ووظيفة الحرب ، و الفلسطيني يقبل بالقول و يقبل عليه ، لأنه صادر عن إنسان قضية ، أو عن إنسان عاقل يلتزم بقضية و يدافع عنها ، ولهذا يتطابق قول **سعيد** مع **دوف** في أكثر من مكان ، كأن يقول الثاني مخاطبا الأول : **" لقد أمضيت عشرين سنة تبكي ، أهذا ما تقوله لي الآن ؟ أهذا هو سلاحك التافه المفلول؟ ....."**[1] فإن نظر **سعيد** إلى زوجته و قال: **" لقد شاخت هذه المرأة حقا، واستنزفت شبابها و هي تنتظره هذه اللحظة، دون أن تعرف أنها لحظة مروعة ".**[2]

يردد الفلسطيني ما يقوله الصهيوني في **"عائد إلى حيفا "** لأنه رأى فيه أستاذا نجيبا[3] وشغف الفلسطيني لأن يتعلم من الصهيوني ، ما هو قريب من الحكمة الضالة التي تقول : **" من علمني حرفا كنت له عبدا " ذلك أن علما ينطوي على العبودية علم لا يرجى منه شيء ، و الجهل أفضل منه ، فالعلم حرية و تحرر ويؤخذ من بشر أحرار ، وهو الأمر الذي يجعل فريال غذول** تقول في لحظة صفاء : **" من علمني حررني "** و التأكيد فإن غسان الذي رأى في حرية اختيار الموت تتويجا لكل حرية لم يكن ينشد العبودية و لا يدعو إليها ، بل كان يقلب الأفكار في مهد القلق و استنبات الأحلام .

واضح أن الكاتب لم ينطق في روايته من حكاية و إنما من مجموعة من الأفكار التي أداها حولها حوارا فكريا محضا ، ولكن هذه الأفكار لا تخلو من مواطن قابلة للنقد فالوطن مثلا ليس هو الماضي كما نفت الرواية ، وإنه لا يكمن أن يكون المستقبل كما تريد أن تقول الرواية ، ولكنه المزيج من الماضي و المستقبل ، وأنه ليس البيت و الريشات و الصورة على الجدار و غيرها من الأشياء كما دهيت الرواية ، ولكنه لا يمكن أن يكون من دون هذه الأشياء أيضا ، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن القضايا المتعددة التي طرحتها الرواية كالبنوة و الأبوة و غير ذلك ، فالأمومة مثلا ليست هي الإنجاب الذي ذهبت الرواية إلى البحث عنه ، ولكنها لا يمكن أن تكون التربية و الرعاية من جهة ثانية ، وإن أحداهما منفصلة عن الأخرى مهما كانت أهميتها لا يمكن أن تؤدي الغرض و لا يمكن

---

[1]- **المصدر نفسه ص 409**
[2]- **نفسه ص 376**
[3]- **صورة اليهودي الغائمة في مريام غسان كنفاني ص 29**

أيضا أن تلغي الأخرى[1] فالأمومة هي الإنجاب و الرعاية وإن توفرت إحداهما لا تعني الأخرى .

أما فيما يتعلق بالمجابهة، فإن الرواية قد أشارت مجرد إشارة إلى أنها تعني حمل السلاح ضد العدو و مثلما ذهبت إليه الرواية، و الحق أن المجابهة لا تقتصر على حمل السلاح فقط، ولكن المجابهة الحقيقية هي التي تؤدي إلى الانتصار للقضية التي يدافع عنها ، ومن هنا فإن مجرد حمل السلاح لا يمكن أن يكفي بالغرض .

و إنما يحتاج معه إلى جملة غير محدودة من الجهود كالجوانب السياسية و الظروف الاجتماعية، و الاقتصادية، و الكفاءة، وغير ذلك كالقوانين التي يمكن أن تضبط حمل السلاح و توجهه توجيها قادرا على تحقيق الغايات و الأهداف[2] .

أما أن ينادي بحمل السلاح وحده كما يمكن أن يفهم من الرواية، ومن دون استعداد و تهيئة و مراعاة الوضع العام داخليا و خارجيا، فإنه لا يمكن أن يصل إلى نتائجه المرجوة و الدليل هو ما حدث **لسعيد .س** وزوجته **صفية** مع كل من **دوف و مريام** حين ذهبا من أجل غرض محددا و لكنهما يفاجئان بواقع لم يعمل له الحساب ، فكانت الصدمة التي لم تفجعها في ولدهما فقط ، وإنما أيضا في الأفكار التي كانا يتبنيانها قبل القدوم إلى **حيفا**

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يتغلب في الرواية " منظور ثقافي في مجرد لا علاقة له بالمشاعر ، ولاشك أن يطرح القضايا الفكرية و التركيز عليها لا يزيد في الحقيقة عن أن يكون تعويضا معنويا للتحقيق من مرارة الهزيمة ،ومن هنا فإنه ليس مواجهة فعلية على أرض الواقع كما يتطلب الحال ،ومما يزيد من مأساوية هذه المحاولة أنها هروب مما هو جوهري إلى ما هو ثانوي، فمواجهة العدو هنا ليست بطولة مهما حاولت أن ترتدي ثيابها ولكن استمرار لحاله الدون كيشوتيه التي يعيشها الإنسان العربي في مرحلة الدول المستقلة ، فبدلا من مواجهة الذات و الداخل التي يمكن أن تجعل العدو و يؤدي التمن

[1]- حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 73
[2]- المرجع نفسه ص 152

تهرب إلى مواجهة الآخر ، ولما كانت المواجهة غير متكافئة فإنها إن لم تكن انتحارا فإنها لا يمكن أن تتحصل على نتائج ملموسة.[1]

إن الفلسطيني في الرواية لا يواجه إسرائيليا متأهبا فقط، وإنما يواجه نفسه من دون استناد قوي، ومن هنا كان الفشل في الحصول على التعويض المطلوب في مثل هذه الحالات وإذا كان كل ما سبق قابلا للأخذ و الرد ، فإن ما لا يقبل المناقشة هو أن الرواية حين فضلت البحث عن الولد ، نسيت القضية الأهم الممثلة في البحث عن الأرض ومن البديهي أنهما مشكلتان مرتبطتان ببعضهما البعض ، ولكن حل مشكلة الابن لا يحل مشكلة الأرض بينما يمكن أن تحل مشكلة الأرض بطريقة أو بأخرى مشكلة الابن ، وهو الأمر الذي كان يجب أن تقتصر عليه الرواية اهتمامات ، لا أن تهمله تماما كما حدث .[2]

ولا يصح هنا الزعم بأن قضية الابن شخصية من انشغالات الوالدين ، أما قضية الأرض فإنها من اختصاص الغير ، و الحق أن الفصل بين العام و الخاص ، أو انتصار للخاص كل عام نقطة ضعف أساسية يجب أن تجنبها الرواية من الناحية الفكرية المجردة على الأقل .

---

[1]- ناهض زقوت: انعكاس الارهاب الصهيوني على الرواية الفلسطينية ،منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين ،(رام الله غزة) ط1، 2002م ص88

[2]- حسين أبو النجا : اليهودي في الرواية الفلسطينية ص 72

بعد أن وصلت إلى هذه النقطة من البحث، أود أن أجمل أهم الاستنتاجات التي خلصت إليها.

1- الشخصية الروائية هي الأساس والمحرك الرئيس للعمل الروائي بحيث تلعب دورا كبيرا في إنتاج الأحداث.

2- تعتبر الشخصية من بين أهم مقومات العمل الروائي، إذ تشكل بناءه وتحكم نسيجه فالرواية بلا شخصية تعد عملا مبتورا في جميع جوانبه.

3- أما تعدد معايير تصنيف الشخصيات، فإن الشخصية الروائية، يمكن أن تصنف بحسب الدور الذي تؤديه، فتكون الشخصية الرئيسية هي محور العمل ثم تأتي الشخصية الثانوية أما من حيث النمو والتطور فإما أن تكون مدورة أي نامية، وإما أن تكون جاهزة أي مسطحة.

4- أظهرت الرواية الفلسطينية نماذج مختلفة للشخصيات اليهودية، وقد ارتأيت أن أقف عند أربعة نماذج من أهم النماذج التي تناولها الكتاب الفلسطينيين متمثلة في شخصية ضابط المخابرات واليهودي المهاجر وقد طغى الوجه العسكري على هذه الشخصيات على أنها سلبية مستبدة متعالية على الفلسطيني، أما المرأة اليهودية فقد تم تقديمها من منظورين جنسي وإنساني، جنسي تمثل في المرأة الغاوية اللعوبة التي لا تتورع عن مضاجعة العربي مقابل المال، أما المنظور الإنساني تمثل في المرأة المتخلية التي تتبع قلبها وترفض توظيف جسدها لخدمة مصالح الحركة الصهيونية.

5- تجسد رواية عائد إلى حيفا حب غسان كنفاني في العودة إلى الوطن، فهي تعبير صادق عن الغربة و تجسيد لها في شكل أدبي فني.

6- أبرز كنفاني في الرواية الجانب الإنساني للقضية الفلسطينية، المتمثلة في استياء المحتل على الأرض و الإنسان.

7- أبرزت الرواية التعاطف اليهودي الفردي وليس الجماعي مع الفلسطينيين.

8- أما بالنسبة لتصوير الشخصية اليهودية، فقد حرصت الرواية على تقديم صفات قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ومن هنا يمكن استنتاج أن الرواية لم تستطيع أن تقدم لليهودي

صورة صحيحة، ومعنى هذا أن معرفة الكاتب الفلسطيني بعدوه ناقصة، وبالتالي لا يمكن أن يقدم العون المطلوب.

9- إيمان الشهيد المبدع غسان كنفاني بالكفاح المسلح والصمود بوجه المحتل مهما طال أمد الاحتلال، كما ظل إيمانه قويا وشامخا والخلاص والتحرر والاستقلال على الرغم من الإحساس بالهزائم والضياع فالتضحية والنضال كفيل بكسر قيود الاحتلال الصهيوني مهما طال أمده.

يبقى أن نشير إلى أن أهم سمة تميز هذا العمل، أنه غير مكتمل، ومنفتح على مزيد من الدراسات و نأمل أن تكون نتائجه انفتاحا على مشاريع بحثية جديدة في المستقبل.

المصادر:

أحمد رفيق عوض: بلاد البحر، اتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بالتعاون مع دار المجد – رام الله – فلسطين، الطبعة 1، سنة 2006م.

خليل بيدس: الوارث، مطبعة الأيتام السورية – القدس، الطبعة 1، سنة 1920م.

غسان كنفاني: الآثار الكاملة – الروايات، مجموعة1، دار الكتب، بيروت، لبنان الطبعة1، سنة1972م.

غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مؤسسة الأبحاث العربية، ش، م، م، لبنان، الطبعة6، سنة 2004م.

فاضل يوسف: الجذور العميقة، دار الكرمل، عمان، الطبعة1، سنة 1988م.

ناصر الدين النشاشيبي: حبات البرتقال، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة1، سنة 1962م.

المعاجم والقواميس:

إبراهيم أنيس ورفقه: المعجم الوسيط، مطبعة مصر، القاهرة، سنة1972م.

أبو الحسن أحمد بن القاسم: معجم مقاييس اللغة، في تحقيق وضبط عبد السلام هارون جزء1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة2، سنة 2008م.

جمال الدين محمد ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان الطبعة6 سنة1997م.

محي الدين يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز أبادي الشيرازي، قاموس المحيط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج6،1996.

المراجع العربية:

إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، منشورات دار الأفاق، الجزائر، الطبعة1 سنة1999م.

إحسان عباس والآخرون: غسان كنفاني إنسانا وأديبا مناضلا، الاتحاد العام للكتاب فلسطين الطبعة1، 1974م.

أحمد عطية أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني 1950- 1975، دار الرشيد للنشر الطبعة1، سنة 1994م.

جويدة حماش: بناء الشخصية في حكاية عبدو والجماجم لمصطفى فارسى مقاربة في السرديات، منشورات الأوراس الجزائر، دط سنة2007م.

حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية) المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة2، سنة 2009م.

حسين أبو النجا: اليهودي في الرواية الفلسطينية ـ إصدارات رابطة إبداع الثقافة الوطنية الجزائر، الطبعة 1، سنة 2002م.

حسن الأشليم: الشخصية الروائية عند خليفة حسن مصطفى، مجلس الثقافة العام سرت (دط 2006.

حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة 3، سنة 2000م.

حيدرة توفيق بيضون: غسان كنفاني (الكلمة والجراح)، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة1 سنة 1995م.

سعيد بن كراد: سيميولوجية الشخصيات السردية دار مجدلاوي، عمان، الطبعة1 سنة2003م.

سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، القاهرة، الطبعة 1 ، سنة 2006 م.

شريبط أحمد شريبط: سيميائية الشخصية الروائية، جامعة ياحي مختار، عنابة الجزائر (دط، دت).

صبحية عودة زعرب: غسان كنفاني (جمالية السرد في الخطاب الروائي)، دار مجدلاوي الأردن، الطبعة 1، سنة 1996م.

عابد عبيد الزربيعي: العلاقة بين الشخصية اليهودية والفلسطينية في الرواية الفلسطينية دار حنين للنشر والتوزيع، فضاء جديد للمعرفة، الطبعة 1، سنة 2008م.

عادل الأسطة: اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987 اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، الطبعة 1، سنة 1992م.

عادل الأسطة: اليهودي في الرواية العربية جدل الدات و الأخر ، اتحاد كتاب الفلسطيني في الضفة الغربية و قطاع غزة،الطبعة 1، سنة 1992م.

عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، مكتبة الشباب، مصر، الطبعة 1، سنة 1982م.

عبد الله رشاد الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة الكويت، الطبعة 1، سنة 1976م.

عبد الله خمار: تقنيات الدراسات في الرواية "الشخصية"، دار الكتاب العربي، الجزائر (دط) سنة1999م.

عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، (دط)، 1998م.

عبد المنعم الميلادي، الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، (دط) سنة2006م.

عبد المنعم زكريا القاضي: البنية السردية في الرواية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الجيزة، (دط)، سنة 2009م.

عبد الوهاب المسيرى: التجانس اليهودي والشخصية اليهودية، منتديات الوحدة العربية.

فريال سماح: رسم الشخصية في روايات حنامينه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، الطبعة 1، سنة 1999م.

محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان ، الطبعة 1، سنة 2010.

محمد علي سلامة: شخصية الثانوية ودورها في المعمار الروائي عند نجيب محفوظ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة1، سنة 2007م.

محمد غرام: فضاء النص الروائي، دار الحوار، سورية، الطبعة1، سنة1996م.

محمد يوسف نجم: فن القصة، دار صادر، بيروت، الطبعة1، سنة 1996م.

ناصر الحجيلان: الشخصية في قصص الأمثال العربية، النادي الأدبي، الرياض، الطبعة1 سنة 2009م.

ناهض زقوت: انعكاس الإرهاب الصهيوني على الرواية الفلسطينية، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، رام الله غزة، الطبعة1، سنة 2002م.

نضال الشامي: الرواية والتاريخ، علم الكتب الحديث، أربد، الطبعة1، سنة 2006م.

يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت لبنان الطبعة1، سنة2000م.

يوسف ذياب: الأدب والأديب في المواجهة الاحتلال فن الرواية نموذجا، الكلية العلوم التربوية رام الله، فلسطين، (دط، دت).

المراجع المترجمة:

بيير شارتية، مدخل إلى نظريات الروائية، ترى عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، الطبعة1، سنة 2001م.

رومان جاكبسون وآخرون: نظرية المنهج الشكلي، تر إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، الشركة المغربية للناشرين المتحدثين، بيروت لبنان الطبعة 1، سنة 1982م.

فيليب هامون: سميولوجية الشخصيات الروائية، تر سعيد بن كراد، دار الكرم الله الجزائر (ط1)، سنة 2012 م.

الرسائل الجامعية:

خالدة الشيخ خليل: الرمز في أدب غسان كنفاني القصصي، رسالة دكتوراه، سنة 1987 تحت إشراف الدكتور مصطفى سواق، معهد اللغة و الأدب العربي جامعة الجزائر.

خالدة الشيخ خليل:الفعالية المقاتلة في أدب كنفاني الروائي،دبلوم الدراسات المعمقة ،سنة 1982م ، تحت إشراف الدكتور حامد حنيفي داود،معهد اللغة و الأدب العربي ، جامعة الجزائر.

المجلات و الدوريات:

فيصل دراج، صورة اليهودي الغائمة في مرايا غسان كنفاني، مجلة (رام الله) خريف 1997 ، ع53.

_*_*_*الفهرس*_*_*_